المنهج التكاملى للعقيدة والعبادة
فى الإسلام

دكتور
محمد على سلامة

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

[وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه
ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله
ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون]

الأنعـــام /١٥٣

تقديــــم:

ثارت فكرة هذا البحث نتيجة لمتابعة النقاش الذى طرحــه الدكتور حسين الذهبى رحمه الله فى كتابه " التفسير والمفسرون " عند مناقشة الإسرائيليات ودورها فى التفسير بالمأثور ودفاعه عن الصحابة بأنهم لم يسألوهم عن شئ فيما يتعلق بالعقيدة أو يتصــل بالأحكام اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن ، وقد حدد بعد ذلك مواطن أخذ الصحابة من أهل الكتــاب فى التفسير وهو الجزء الخاص بالقصص ، وتعجبت كيف لا يعد القصص شيئا ماسا بالعقيدة أو مرتبطا بها ؟ ثم تتابعت الأسئلة فى ذهنى فرعا من فرع وسؤالا يجذب سؤالا حتى تكونــت صــورة البحث فى ذهنى ونتج عنه تأمل كــل جوانــب وأركــان الــدين الإسلامى الذى تبين أنه كل متكامل ومنهج تنطلق خيوطــه مــن نقطة واحدة وتتفرع لتعود وتصب فى هذه النقطة ، ثم تنعكس بعد ذلك على صورة الإنسان المسلم الذى يسعى. الدين الإسلامى إلى تكوينه ، والذى يستطيع بهذا التكوين أن يواجه ظروف الحياة بكل تناقضاتها فلا يزل ولا يلين أمامها .

هذا المنهج المتكامل ، مهما تشعبت أفرعه يظل ماثلا فى كل فرع وأساس الشجرة لا إلــه إلا الله ، وفروعهــا العبــادات والمعاملات ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر الحــديث

النظرية والتطبيق ، فالأساس نظرى وهو قـول مشـمول بعـدة عناصر نابعة منه وتالية له ، ثم يأتى الجانب التطبيقـى ويأخـذ اتجاهين : عبادات ، ومعاملات وكل هذه الأفرع والأقسام تأخـذ من بعضها وتصب فى بعضها لتكون كلا فيتماسك، لا يجب فصل قسم فيه عن القسم الآخر ، وإلا صار الحديث فيـه ضـربا مـن اللهو، فلا يمكن تخيل الصدق كخلق أو البيع والشراء كنوع مـن المعاملات إلا إذا وضعنا لا إله إلا الله نصب أعيننا .

وهذا ما سنحاول أن نبينه فى هذه الصفحات التى تلى هذه المقدمة والتى نسأل الله أن يلهمنا فيه الصواب والرشد حتى نقـدم هذه الخطرة الإيمانية لعلها تفيدنا وتفيد غيرنا من السائرين علـى طريق الله سبحانه وتعالى .

دكتور محمد على سلامة

الفصل الأول

العقيـــــدة

تمثل العقيدة الجانب النظرى فى الدين الإسلامى ذلك أنهــا تعتمد على أساسين نظريين: النقل، وتمثله الأخبار التى وردت فى الكتاب والسنة وتخبرنا عن الله سبحانه وتعالى، ثم العقــل الــذى يفكر فى هذا النقل ويفهمه ويؤمن به، ويدعم إيمانـــه بالمشـــاهدة والتأمل فى مخلوقات الله تعالى التى يشاهدها ويحاول أن يتأكد – من خلالها – نم قدرة الله سبحانه وتعالى وبالتالى وجوده فالإيمان به ، وقد قلنا إنه نظرى لأن الوصول إليه أمر نظرى أيضا مهما تعددت الوسائل فى إثبات هذا المنطلق .

وقد تكثفت كل هذه الرؤية فى جملة واحدة عرفت علــى كافة المستويات بكلمة التوحيد ألا وهــى : لا إلــه إلا الله ؛ ولا تكتمل صورة الإيمان بها إلا بشقها الثانى (محمد رسول الله) وهى ضرورية بل وأساسية فى الإيمان بالأولى·لأنها السبيل إليها فولم نصدق ونؤمن بأن محمدا رسول الله ما صدقنا بأنه لا إله إلا الله ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذى أخبرنا عن الله وعن طريقه عرفنا ما يجب علينا تجاه (لا إله إلا الله) ولندع هذا جانبا لأنه أمر مكرر ومعلوم لدرجة أنى أعتبر الحديث فيه نوعا مــن التكــرار الممل والمنفر ، فالبديهيات لا تحتاج إلى تكرار الكلام .

إذن الأساس هو (لا إله إلا الله) وهى التـــى نـــتج عنهــا الحديث فى أركان العقيدة ، وهى فى الوقت نفسه أحــد الأركــان

الخمسة التى تمثل العبادات الإسلامية ولأهميتها أطلق العلماء عليها كلمة التوحيد، لأنها تدل أولا على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتدل ثانيا على تجميع كل الآلهة وتوحيدها فى الله سبحانه وتعالى الذى لا شريك له ، وتدل ثالثا على تجميع كل الأركان- عقائد – وعبادات – ومعاملات لتصب فيها ، فتصبح شيئا واحدا ، ومن هنا تواردت الفكرة الأساسية لهذا البحث .

ولأهميتها فقد استغرق القرآن الكريم وقتا طويلا لتأسيس مفهومها ، بالرغم من أن البعض يرى بل ويتحدث فيها وكأنها مسألة سهلة ، إلا أنها الكل الذى تنطلق منه الأفعال ، وتعود لتصب فيه وتؤكده كل الأفعال .

والقصص التى يركز الناس على الحديث فيها باعتبارها نوعا من العظة والعبرة أو (باعتبارها مواساة للنبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى أزماتهم التى واجهوها فى مستهل الدعوة ، أو تبشيرا بأن النصر حليفهم ، إنما جاءت فى الحقيقة لتثبيت هذا المفهوم (لا إله إلا الله) قبل الأهداف الأخرى ، ولو نظرنا إلى مضامين القصص التى وردت فى القرآن الكريم لتأكدنا مما نقول، ومن أنه كان الهدف الأسمى لها قبل الأهداف الثانوية الأخرى، ولا نقصد بالثانوية أنها غير مهمة ، بل نقصد أنها فرعية بالقياس إلى الهدف الأساسى .

إن قصة آدم تؤكد هذا المعنى (لا إله إلا الله) له الأمـــر، وله العلم وله الطاعة ، وهذا حقه مادام هو الله الواحـــد الـــذى لا يشركه أحد فى أمره ، فقد أمر سبحانه وتعالى بخلق آدم ، والقول والأمر بمعنى واحد ، لأنه سبحانه وتعالى يقول " إنما أمـــره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " [1] ، وقوله :" إن مثل عيســى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" [2]، أى أن الأمر عنده قول ، والاثنان بعينان (الخلق) فالخلق أمـــر والأمـــر (كن) وكلها تتوازى مع بعضها فى القرآن الكريم ، ولما تصورت الملائكة أنها تعلم بحكم معرفتها بالتجربة السابقة كما يقول كثيـــر من المفسرين ، تجربة الجن قبل البشر ، وأخبرته بـــأن هـــؤلاء أفسدوا فى الأرض ، فرد عليهم بالعلم قائلا :" إنى أعلـــم مـــا لا تعلمون" [3] أى أعلم ما تعلمونه عن الماضى وفوق ذلك أعلم مـــا لا تعلمون من المستقبل وهنا تأتى صفة العلم فله العلم الماضـــى والحاضر والمستقبل .

([1]) يس/٨٢ .

([2]) البقرة/٣٠

([3]) آل عمران /٥٩ .

ثم إنه له الطاعة ، فلما عصى إبليس أخرجه مـن جنتـه ورحمته واعتبر عصيان أمره فسوقا " إلا إبليس كان من الجـن ففسق عن أمر ربه " [1] .

وتتوالى قصص القرآن مثبتة الوحدانية والألوهية له وحده دون غيره .... فقصة نوح تؤكد على هذه المعـانى ، وخاصـة العلم، إذ أمر الله نوحا ببناء السفينة وتصور الناس أن نوحا قـد أصابه الجنون وسخروا منه وهم لا يعلمون حكمة هذا الصـنع ، ولما حاول نوح أن ينقذ ابنه أخبره بعلمه الذى لا يعلمه أحد سواء فى حقيقة الأشياء أو فى معناها ، أخبره بأنه ليس مـن أهلـه ، وسواء كان معنى هذا أنه ليس ابنه كما يقول بعض المفسرين أو أنه حكم على ابن نوح لمعصيته أوامر الله ، ومن يعص لا يكـن من أهل التقوى وهذا هو حال نوح ومن آمن معه كما يقول بعض الآخر إلا أنه دلالة قاطعة على أن العلم لله وحده.

تتجسد قضية الألوهية بصفة أكبر فى قصة إبراهيم لتتجمع لها كل خصائص الذات والصفات ، فهى تنفى جميع الآلهة سواء الطبيعية كما يتصور البعض أن الطبيعة هى الأله الأعظم لهـذا الكون ، فأبرز له كل الظواهر الطبيعية ونفى ألوهيتها ، ومن ثـم عرفه بنفسه ، وعرف الآخرين من خلاله ، أو كانت بشرية كمـا

---

(1) الكهف / ٥٠ .

فى قصته مع النمروز ، أو فى الأصنام كما فعل إبراهيم معها ولم تدافع عن نفسها ليحطم لهم جميعها وليخبرهم بأنه الإله الواحد .

وكما فى قصة موسى مع فرعون وقومه أو مع بنى إسرائيل فقد نفى وجود إله غير الله سبحانه وتعالى ، ومع عيسى أيضا كل ذلك لتأكيد معنى الوحدانية والألوهية بذاتها وصفاتها ، ولذلك كان قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " [1] وتثبيت الفؤاد هنا يعنى الأمرين معا ، يعنى تثبيت المعتقد فى قلبه أولا ، ويتبع ذلك طمأنه القلب أمام الصعوبات، ثانيا ومن ثم لا نستطيع أن نقول إن القصص القرآنى لا علاقة له بالعقيدة ، فهو أساس مهم من أسس العقيدة ، فالعبرة التى أشار الله إليها فى سورة يوسف وكانت خلاصة قصته هو هذا المفهوم " والله غالب على أمره أى لا إله غير ولاراد لقضائه وأمره ، ولذلك كانت خاتمة السورة دالة على هذا المعنى: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان

---

(1) هود/١٢٠ .

حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون "[1] .

إن كل تفاصيل القصة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه (لا إله إلا الله) فلا إله غيره ، ولا غالب إلا هو ، ولا علم إلا له ومن ثم جاء اعتراف الأخوة بخطئهم ، وأكدوا أنه لم يكن خطأ فى حق يوسف وحده إنما كان خطأ فى حق الله سبحانه وتعـالى ولـذلك قالوا ليوسف " تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين" وقـالوا لأبيهم :" يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خـاطئين قـال سـوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم " [2] .

إن القصص القرآنى يهدف فى حقيقته إلى هذا المضـمون قبل أى شئ ، أنه متصل بالعقيدة الدينية التى خلاصتها (لا إله إلا الله) ومن ثم كان الإلحاح المستمر فى عقيدتنا الإسـلامية علـى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لأنه فى النهاية مؤد إلى هذا التوحيد الذى يعد أساس كل شئ ، ومن هنا كان الصورة العامـة للقرآن المكى ، وهى الفترة التى انصب الاهتمام فيها على تثبيت العقيدة قبل أن يشرع فى فرض العبادات والأركـان الأخـرى ،

---

(1) يوسف /١١٠ ، ١١١ .

(2) يوسف /٩١، ٩٧ .

وهذه دلالة على أن هذا الأساس أهم من الأسس الأخـرى لأنهـا مكملة له ومؤدية إليه فى النهاية .

وإذا كان الإيمان بالواحد أساس لكل المتفرعات منه ، فإن الإيمان بخصائصه (ذاتا وصفات) ضـرورة أساسـية ، وأولهـا الإيمان ووجوده ، هى مسألة لا تحتاج منا إلى بحث وإيراد أقوال السابقين ويكفى أنه يعترف به من يؤمن به ومن لا يؤمن به ن إن مشركى مكة أنفيهم كانوا يؤمنون بوجوده "ولئن سألتهم من خلـق السموات والأرض ليقولون الله " [1]، كما توصل إلى ذلك العلماء فى العصر الحديث عن طريق العقل العلمى الخالص [2] .

والإيمان بصفاته يتبع الإيمان بذاته وهى مسـألة بديهيـة أيضا ، وبالرغم من أن هذه القضية قد شـغلت الفكـر العربـى والإسلامى فى فترة المد العقلى والفلسفى أو الكلامى ، إلا أنهم فى النهاية لم يستطيعوا إنكارها ، إن مجرد مناقشة المعتزلة لحقيقـة الصفات – كما قال بذلك أهل السنة– أو فى مجازيتها ومـدلولها الرمزى إنما هو دليل قاطع على إيمانهم بهذه الصفات ، وكانـت

([1]) لقمان / ٢٥ .

([2]) انظر وليم جيمس العقل والدين ، ترجمة د. محمود حسـب الله ج١ الحلبـى ١٩٤٩ ص ٨١ وما بعدها حتى ص ١١٠ .

نتيجة المغالاة فى صراع الأفكار أن تمزقت الأمة الإسلامية بـــين هذا الرأى وذلك [1] .

إن الإيمان بالله كل لا يتجزأ ذاتا وصفات فمادام المؤمن قد آمن بالله فعليه أن يؤمن بصفاته ، فقد آمنوا بالله نقلا وتصديقا لما جاء فى هذا النقل ، فنحن لم نر الله ، ولكن القرآن الكريم أخبرنا عنه وصدقناه ، فلم الخلاف إذن ؟ إن هذه الصـــفات مثبتـــة فـــى الكتاب ، وقد صدقنا الكتاب فما علينا إلا تصديق ما جـــاء بـــه ، ويبدو أن محاولة التنزيه التى قال بها المعتزلة وبالغوا فيهـــا قـــد جرت إلى هذه الأقوال ، وهذا يؤكد المثل القائل ، إذا زاد الشـــئ عن حده انقلب إلى ضده : فقد أرادوا التنزيه ، وجرهم هذا إلـــى الإنكار مما جلب عليهم كثيرا من المتاعب وكثيرا من الصـــفات كانوا فى غنى عنها.

والقرآن فى قصصه وفى كل مواضعه أكد هذه الصفات ، كما تحدثنا آنفا عن القصص ومدلوله ، إنه طرح لهذه الصـــفات بطريقة غير مباشرة ، ولكنها موصلة إلى هذه المعانى ، فكما أكد فى قصة القدرة والعلم والجبروت فى معظم هذه الصفات أكد فى قصة موسى على السمع والبصر والكلام فقد قـــال لموســـى :" لا

([1]) انظر محمد عبده / رسالة التوحيد تحقيق ودراسة محمد عمارة كتاب الهلال عدد يولية ١٩٨٠ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١.

تخافا إننى معكما أسمع وأرى " [1] وأكد صفة الكلام فى أكثر من موضع فى هذه القصة التى جمعت كثيرا من صفات الله تعـالى، الوجود والوحدانية والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، والقهـر والتكبر ، إنه دليل آخر على مضمون القصص القرآنـى الـذى يتعمق أكثر من مجرد العبرة والعظة والمواساة .

الملائكـــة

ويتبع الإيمان بالذات والصفات ، الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والبعث والحســاب ، والقضــاء والقــدر، فالإيمان بالملائكة ضرورة أساسية فهم خلق الله الذين وكلهم بكافة أوامره ، وخص كل واحد منهم بمهمة ، وبالرغم من أننا لم نــر الملائكة ، وكلنا عرفناهم من خلال الإخبار عـنهم فـى القـرآن الكريم ، إلا أن الإيمان بهم ضرورة لتأكيد العقيدة من نـاحيتين : أولا ، أن الله الذى آمنا به وصدقناه أخبرنا عنهم وبالتالى يكـون وجودهم حقيقة ، وثانيا : إن الإيمان بهم يعد اختبارا حقيقيا لصدق الإيمان بالله، فلا يستطيع واحدا أن يدعى أنه يؤمن بالله ولا يؤمن بملائكته ويصبح مؤمنا حقا ، إنه دليل تصديق ، ثالثا : إن التاريخ يؤكد صدق وجودهم ولو من خلال ملاك واحد هو جبريل ، الذى كلف بتبليغ رسالات الله لأنبيائه ، والتاريخ يشهد بوجود هـؤلاء

---

(1) طه /٤٦

الأنبياء وبرسالاتهم ، ومن ثم يصبح قرينة على وجود جبريـــل ، ويتبع هذا أن يكون قرينة على وجود الملائكة جميعـــا ، فوجـــود واحد يساوى وجود الكل ، والإيمان بواحد يتبعه إيمان بالكل .

بالإضافة إلى هذا الطريق العقلـــى فـــى إثبـــات وجـــود الملائكة، بل وقبل هذا هناك الطريـــق النقلـــى مـــن مصـــدريه الأساسيين القرآن والسنة فقد أثبت القرآن فى مواضع كثيرة منـــه وجود الملائكة بل جعل المبدأ الأساس للإيمان الذى تدور حولـــه العقيدة والذى يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنـــون الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وصاغه فى صيغة الماضى ليجعل منه أمرا حتميا لا مفر منه كما هـــى طبيعـــة الأسـلوب القرآنى فى حسم المواقف حينما يعبر عنها بصيغة الماضى يقول تعالى :" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمـــن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رســـله وقـــالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" [1] ، فبالإضافة إلـــى أنها تقرير واقع لأن الآية نزلت فى أواخر أيام الدعوة المحمديـــة إلا أنها أيضا إشارة إلى مقياس يقاس عليه الإيمان فى كل عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

([1]) البقرة/٢٨٥ .

الكتب

وهى الرسالات السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه منذ آدم حتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكلها تنهل من منهل واحد هو العلم الإلهى فمصدرها هو الله الذى أنزلها على الأنبياء لتكون دساتير للناس يهتدون بها فى حياتهم حتى لا يضلوا وهى بمثابة وسائل الاتصال بين الله والبشر ، فإذا كان اتصال الله بآدم أبى البشر مباشرا ، وأعطاه من التعليمات ما يفيده فى حياته على الأرض ليعمرها ويخلفه فيها فإن الاتصال بالبشر تَمّ بعد ذلك عن طريق الرسالات ، يصطفى الله عبدا من عباده ، ويرسل إليه رسالة عن طريق جبريل الملاك الموكل بالرسالات ليبلغه بتعاليم الله وتوجيهاته لهم ، حتى يستطيعوا تقويم أنفسهم فيما مضى من أخطاء وحتى يسيروا فيما هو آت على هذه التعاليم والتوجيهات .

وهذه الرسالات والكتب كانت دليلا على تأكيد وحدانية الله وصفاته ، فهو موجود وهو واحد ، وهو عليم بأحوال البشر .

ولو نظرنا إلى الفترات المتباعدة التى نزلت فيها الرسالات والظروف الاجتماعية التى كانوا يعيشون فيها لتأكدنا من ضرورة هذا الاتصال وضرورة هذه الرسالات ، فكلما تاه الطريق من الناس أنقذهم الله برسالة منه يلاحقهم فيها ، وبالتالى تصبح دليلا على علم الله بخلقه ، وفى الوقت نفسه دليلا على حب الله لبنى

آدم ، وتصديقا لإكرامه لهم وأمره للملائكة بالسجود له ، وإخبار الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم إنما يعنى توقف الاتصال القادم سيكون مباشرا وهو ما يوحى بالقيامة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعثت أنـــا والســـاعة كهذين " ، وهى إشارة إلى تلازم الســـاعة مـــع ختمـــه للنبـــوة والرسالات ، ويؤكد المعنى الذى ذهبنا إليه من التبشـــير بقـــرب قدوم الساعة ، وتوقف الاتصال عن طريق الوحى ، ولذلك جاءت الرسالة مستوعبة لكل الرسالات السابقة وفى هذا دليل آخر علـــى صدق الإخبار بأنها خاتمة ، والختام لابد أن يكون جامعـــا وفـــى الوقت نفسه نذير للناس بقرب اللقاء مع الله ، ولن يكـــون للقـــاء تعليمات ، بل سيكون حسابا للناس عما وصل إليهم من تعـــاليم ، وماذا فعلوا بها وأفادوا منها ، وبالتالى ستكون النتيجة حياة أبدية إما فى الجنة وإما فى النار وسينادى مناد من قبل الله يوم القيامة " يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت " .

ومن ثم فالإيمان بالرسالات والكتب دعامة هامة من دعائم الإيمان بالله وهو العقيدة الإسلامية الخالصة؛ لأنه يعنـــى أشـــياء متعددة ، فهو يعنى أولا: تصديق القرآن إذا إننا لم نعرف شـــيئا عن هذه الرسالات إلا من خلال القـــرآن الكـــريم ، صـــحيح أن بعضها عاش بيننا ولكن عاش فى صورته البشرية ، وغالبا مـــا

تكون هذه الصورة مضللة لا تفيد معرفة حقيقية الرسالة وجوهرها الأصلى ، والواقع يؤكد هذا ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقول اليوم إن أحوال اليهود والنصارى بل والمسلمين تدل على رسالاتهم فى حقيقتها الصافية ، إنها صورة مشوهة بحكم اختلاطهـا بطبيعـة البشر .

ومن ثم لا يصبح هناك مصدر حقيقى لمعرفة جوهر هذه الرسالات إلا من خلال تعريف القرآن بها سـواء عـن طريـق التعريف بمبادئها الحقيقية أو إخبارها عما أصابها من تحريـف ، أو من خلال قياسها بالمبادئ العليا العظيمة التى طرحها القـرآن الكريم لأن الرسالات لا تتناقض ولا تتعارض فجوهرها واحـد ، وإن حدثت بعض الاختلافات فإن مـرد ذلـك إلـى الظـروف والأحوال التى نزلت فيها الرسالات ، وطبيعة كل أمة نزلت فيها رسالتها ، كما أن هذه الرسالات نزلت فى أمم ، وكل أمه تختلف عن الأخرى ، والدليل على ذلك تنوع المعجزات حسب ما برعت فيه كل أمة ، أما القرآن فجاء للناس جميعا وجاء خاتما ولذلك لابد أن يشتمل على الجواهر الأساسية التى هى خلاصـة كـل هـذه الرسالات ثم هو ثانيا دليل على الإيمان القـوى بـالله وبقدرتـه وبصفاته، فمن يؤمن بهذه الكتب يؤمن بعلم الله الذى أحـاط بـه البشرية منذ نزولها إلى الأرض بمحاسنها وأخلاقها وخطاياهـا،

وعدم الإيمان بها يعنى العكس تماما وهو ما يلغى الإيمان لأنه يعد ناقصا فكيف تؤمن بالله ولا تؤمن بوحدانيته وبعلمه وبقيوميته .

ثم هو أخيرا إيمان بشمولية الرسالة السماوية المحمدية الجامعة لكل هذه، ويصبح بالتالى مسئولية على أتباع هذا الدين الحنيف أن يراعوا حق الله فى كل البشر مهما اختلفت مشاربهم، حتى يكون الإيمان صدقا فى القلب وصدقا فى العمل .

الرسـل :

إن الإيمان بالرسل نتيجة حتمية للإيمان بالله وملائكته وكتبه، فمن يؤمن بالله، يؤمن بملائكته ومن يؤمن بالملائكة يؤمن بالكتب، وهذه الكتب جاءت على لسان رسله فالتتابع قائم والخيط مستمر، والمنهج المتكامل يسير من خطوة إلى أخرى فى إحكام شديد، وهناك شرط للإيمان بالرسل وهو عدم التفريق بينهم فلا تجعل لواحد منهم أفضلية على الآخرين إلا من خلال ما بينه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم من حيث تمييز كل واحد منهم بميزة أو لنقل خاصية محددة "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس" [1] والرسل بشر من عباد الله اصطفاهم منهم ، وتمثل الاصطفاء فى رعاية إلهية مخصوصة

([1]) البقرة /٢٥٣ .

لكل واحد منهم ، ومن ينظر فى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم يعرف كيف كان الله سبحانه وتعالى يرعى كل نبى منذ ولادته ، وحتى انتهائه من أداء مهمته ، ولنضرب أمثلة بإبراهيم الذى لقنه الله العلم والحجة صغيرا ، ثم حفظه بعد ذلك من الحرق وأعطاه للحجة والبرهان حينما طلبهما وهو يحاج النمروز الجبار الذى ادعى الألوهية ، وحينما طلبها لنفسه فى قضية معرفة البعث .

ومن ينظر أيضا فى قصة يوسف يتأكد من هذه العناية المخصوصة منذ الطفولة وحتى أن أصبح عزيزا لمصر مرورا بالبئر، وبمؤامرة امرأة العزيز وفى السجن ، وفى كل مرحلة كانت هناك عناية مخصوصة وتربية مخصوصة ، ثم لننظر فى قصة موسى بعد ذلك منذ كان رضيعا وكيف حفظه من القتل ، ثم تأديبه وتربيته بعد حادثة القتل التى ارتكبها وتوبته عنها ، ثم إيصاله إلى نبى آخر لتكتمل له التربية الخاصة التى تؤهله بعد ذلك لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة ، وتدعيمه بالآيات والمعجزات سواء مع فرعون أو مع المارقين من قومه بنى إسرائيل ، إن هذا كله يدعم الإيمان بالله عن طريق الإيمان بالرسل .

والإيمان بالرسل كما بينه القرآن الكريم يؤكد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو واحد منهم وهو خاتمهم ، فلا يضعف واحد من المؤمنين لمجرد بلاء ينزل بالرسول وأصحابه ،

وكان بعض هذه الفتن يفت فى عضد بعض ضعفاء الإيمان حيث كان الشيطان يسيطر على أحدهم ويقول أين حماية الله لنبيه ، ومن ثم يخرج عن إطار الإيمان بالله ، ولكن المؤمنين المتمسكين بدينهم كانوا ينظرون إلى قصص الأنبياء فيزدادوا تمسكا بإيمانهم لأنهم كانوا يدركون الحكمة الإلهية ، ولذلك نلاحظ أن القصص القرآنى معظمه نزل فى هذه الفترة التى شهدت أوقاتا عصيبة بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه من المؤمنين المخلصين وهى الفترة المكية ، وهكذا كانت مثبتات للإيمان .

لقد كانت بمثابة دروس لهم فى حياتهم ولنا نحن لتوضح لنا أن الطريق إلى الله ليس سهلا ولا هينا، والله القادر على كل شئ يبتلى أنبياءه بهذه البلايا – مع أنه قادر لا شك فى ذلك على تجنيبهم لها– ليعلمنا ألا نركن إلى الله ومعجزاته فلا نعمل، وإنما هو يريدنا أن نعمل ونجد ونتحمل من البلايا ما نستطيع دون ضعف فتعمر الأرض ونحقق هدف الله من خلقنا فى الأرض ، وإذا أصابتنا محن فلا نجزع ونخرج من الإيمان ، لأن الأنبياء الذين هم قدوتنا قد واجهوا ما هو أصعب منها وكان النصر حليفهم فى النهاية ، إنه طريق للعمل وعدم التكاسل والتواكل .

ولإيماننا بالرسل جميعا جعلنا الله شهداء على الناس وسنكون بمثابة النموذج الذى يقاس عليه الإيمان فإن احتج بعض

أتباع الديانات الأخرى والذين لا يؤمنون بكل الرسل بـأنهم مـا أمنوا إلا بما وصلت إليه معارفهم ، أتى الله بالمؤمنين مـن أمـة محمد ليكونوا شهداء عليهم فنحن بشر مثلهم ، ولم نعـرف كـل تفاصيل رسالتهم ومع هذا آمنا برسلهم ولم نفرق بين أحد مـنهم " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على النـاس ، ويكـوّن الرسول عليكم شهيدا" (1) .

اليوم الآخـــر

إن الإيمان باليوم الآخر يحقق هدفا مزدوجا ، فهو تأكيـد على الإيمان بالمبادئ السابقة لأنه يجرى مجراها من ناحية الغيب ومن ناحية الإيمان النظرى ، فاليوم الآخر ملك لله وحده مالك يوم الدين والإيمان باليوم الآخر ببساطة شديدة يعنى الإيمان بالله لأنه هو الذى حدده ، وكما خلق اليوم الأول والإنسان فقد خلق الآخر ، وهو دليل على الإيمان بصفات الله من قدرة وعدل وأزلية " هـو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم " (2)

وهو إيمان بالملائكة لأنهم كما كانوا قبل بدايـة الخلـق، فإنهم سيكونون بعد فناء الدنيا ، وسيكونون منفذى أوامر الله فـى الآخرة ، كما كانوا منفذى أوامر الله فى الدنيا ، فهـم الموكلـون

(1) البقرة /١٤٢ .
(2) الحديد /٣ .

بتوصيل أوامر الله لكل مخلوق من مخلوقاته السماوات والأرض والكائنات والناس وسيكونون حملة العرش يوم القيامة ويأتون صفا صفا بين يدى الله ، ويستقبلون أهل الجنة بالترحاب ، وهم خزنة النار ومنفذوا أوامر الله بالحساب ، وبالتالى فإن الإيمان بالآخرة يعنى الإيمان بالملائكة أيضا .

والإيمان بالآخرة يعنى الإيمان بالرسل لأنهم مابعثوا إلا ليحذرونا من هذا اليوم وينبهونا إلى ما سيكون فيه فإن آمنا باليوم الآخر كان معنى هذا أننا نصدقهم ، وتصديقهم هو الإيمان بهم ، لأن الإيمان أساسه الصدق ، والإيمان بالرسل هو فى صميمه إيمان بالكتب لأنها نزلت على هؤلاء الرسل ، وهكذا توصل كل حلقة إلى الأخرى .

أما الهدف الثانى فهو قرين الإيمان أيضا وهو العمل فمن يؤمن باليوم الآخر لابد أن يراعى ما يحدث فيه من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار ، وهذا كله يورث العمل الصالح فى الدنيا ولن يكون ذلك إلا بالإيمان الحقيقى الذى يورث العمل الصالح .

البعث والحساب

يتبع الإيمان باليوم الآخر شق آخر منه ، وهو الإيمان بما يستتبعه هذا اليوم من بعث، وحساب ، فالبعث قرين قيام اليوم الآخر لأنه يحدث إفناء لمظاهر الدنيا ، وخلق جديد لعالم جديد ،"

بل هم فى لبس من خلق جديد" [1] تتغير فيه الأرض وتتبدل هى والسماوات " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار " [2] .

إذن يشمل البعث كل مظاهر الكون الذى نعيش فيه ونراه السماوات والأرض والناس وكل شئ ، إنه بعث جديد ، وإذا كان هذا هو حال كل الكائنات العظيمة مثل السماوات والأرض فإن مسألة إعادة خلق الناس تصبح مسألة سهلة ومقبولة ، ويشرح القرآن هذا بوضوح فى قوله تعالى :" لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [3] إنه بعث لكل شئ وهى قدرة الله ، حتى يتهيأ كل شئ للعالم الجديد ، إنه عالم جديد بكل معنى الكلمة سماء جديدة وأرض جديدة وأناس جدد لأنهم مؤهلون لحياة أبدية ، خلود بلا موت .

ولكى يصلوا إلى هذه النهاية لابد من حسابهم ، والحساب حقيقة واقعة تؤيدها الشواهد النقلية ، والشواهد العقلية ، أما الشواهد النقلية فكثيرة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأما العقلية فتتلخص فى أن الإنسان فى عمله فى الدنيا لابد أن

---

(1) ق/١٥ .

(2) إبراهيم /٤٨ .

(3) غافر/٥٧ .

يرى نتيجة له ، فإن عمل جيدا فى حقل أو فى مصنع أو فى مذاكرة ، فسوف يجنى نتيجة ما فعل ، وإذا طبقنا هذا على الرؤية الدينية عن المؤمن ، فإنه يعرف أن الله خلقه لهدف محدد ليكون خليفته فى الأرض يعمرها بقوانين الله ومنحه كل ما يمكن أن يعينه على هذه المهمة ، وأنعم عليه بنعم كثيرة حتى يحقق الهدف، فسخر له الليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والحيوانات والكائنات ، ولابد أن يحاسبه على ما قدم مقابل هذه النعم ، وهى أمور ملموسة بين يديه ، وليست غيبا عنه إنه ينعم بها وظواهرها بين يديه ليعرف بها قدرة الله فى الكون ، ولينعم بها ما يشاء، ولذلك خصص الرازى فى كتابه ؛ أسرار التنزيل وأنوار التأويل؛ القسم الثانى كله من الكتاب لبيان هذه الظواهر الدالة على وجود الله وقدرته ، وذلك بعدما خصص القسم الأول لكمة التوحيد (لا إله إلا الله) [1] .

والإيمان بالبعث والحساب دليل قوى على صدق الإيمان بكل المقدمات السابقة، فهو دليل الإيمان بالله الواحد، وبذاته وصفاته، والإيمان بملائكته، الموكلون بتنفيذ نتيجة الحساب، والكتب التى أخبرت عنه، والرسل الذين نزلت عليهم هذه الكتب،

---

(1) انظر الرازى / أسرار التنزيل وأنوار التأويل تحقيق محمود أحمد محمد وآخرين من العراق ١٩٨٥ . وقد خصص القسم الأول من الكتاب (الباب الأول) لأسرار كلمة التوحيد .

وأخبروا بها، واليوم الآخر لأنه اليوم الذى سيشهد البعث والحساب، إنها أنهار تصب فى بعضها وتؤدى إلى بعضها.

القضاء والقدر

نموذج آخر لصدق الإيمان، فالمؤمن الذى يرد كل شيئ إلى الله لإيمانه به، ويعلم أن مقاليد أموره بيديه لابد أن يؤمن بالقضاء والقدر، فكل أمر من الله، وهذا لا يعنى التقاعس والتواكل، وإنما يعنى العمل وترك الأمر على الله، والإيمان بالقضاء والقدر دليل صدق للإيمان الحقيقى من جهة أخرى لأنه يعنى – بأبسط أسلوب – التسليم لله بالألوهية وللعبد بالعبودية، وإذا كانت مقاليد أمورنا الدنيوية الآخرين فإن مقاليد أمورنا الدنيوية والأخروية هى بيد الله سبحانه وتعالى، وما هؤلاء الآخرون إلا وسائل لتنفيذ إدارة الله سبحانه وتعالى .

وأعنى بمقاليد أمورنا الدنيوية هنا أن تكون نموذجا للإنسان للتدليل على القضاء والقدرة فالإنسان يعمل ولا يمكن أن يضمن النتيجة، إن العامل يعمل ويجد، وتكون نتيجة عمله.

وتقديره بيد رئيسه ، فهو لا يضمن التقييم ، ومع هذا يعمل، والطالب يذاكر جيدا ولكنه لا يملك تقدير درجات نفسه مهما أجاب بدقة ، وهذا مثال بسيط ساذج مع أنه دال فى الوقت نفسه على ما نحن بصدده .

أولا: لأنه يعنى أن الإنسان يسلم أمره لغيره وبالتالى يكون أولى أن يسلم أمره لله ، وإذا كان الإنسان يشكو ظلم الناس وعدم تقديرهم له لأنهم بشر مثله يخطئــون كمــا يخطــئ ، وتختلــف الموازين فيما بينهم ، لكنه لن يجد ظلما عند العدل الذى يؤمن به، وبالتالى فإن تسليم المقادير له لن يضره بل يفيده أكثر إفادة .

ثانيا: إن فى المثال دليلا آخر نحن فى حاجة إليه، فبالرغم من أن الكل لا يرضيه التقييم الذى يلاقيه لعمله (علــى مســتوى البشر فإنه لا يتوقف عن العمل ، وهذا برهان آخر لمن يشككون أو يتشككون فى القضاء والقدر ، وإذا رضوا بظلم الناس فلماذا لا يرضون بعدل الله إنهم يريدون أن يوجدوا لأنفسهم سندا للتكاســل والتواكل فمادام القضاء والقدر بيد الله فلماذا يعملــون؟ ونوجــه السؤال بطريقة أخرى من منطلق الإيمان إذا كــانوا لا يرضــون عن تقييم أعمالهم فلماذا يظلــون يعملــون ويجتهــدون؟ ســنرى الإجابة، إنها ضرورة الحياة (عند الدنيويين) وهى نفســها عنــد المؤمنين إنها سنة الله فى خلقه، إنهم يعملون ويتركــون النتيجــة على الله ، إنها ضرورة الحياة أيضا فالله خلقهــم لهــذا العمــل ، وتكلف بأمورهم ، ومن ثم فالمؤمن يحرص على العمل أكثر رغم تسليمه المطلق بقضاء الله وقدره لأنه يعرف أن هذا مدعاة للعمل أكثر منه مدعاة للتواكل .

ثالثا : إن هذه القضية بالرغم من وضوحها أثارت جـدلا كبيرا بين الفرق الإسلامية منذ القدم وحتـى اليـوم، ومناقشـات تخرج بصاحبها أحيانا من حلقة الإيمان إلى الإلحاد أحيانا أخرى ، ولذلك رأينا مصطلحات الجبرية والقدرية والحرية فمن قائل بـأن الإنسان مسير، وقائل بأن الإنسان مخير، وقائل بالوسط بين الجبر والاختيار [1]، ولن نخوض فى هذا الأمر لأننا نسير فى خط محدد نحاول ألا تتشعب به السبل ، ألا وهو كيف يكون الإيمان بالقضاء والقدر دليلا قويا على الإيمان ؟

إن المؤمن حين يسلم بالقضاء والقدر إنما يعنى التسليم بالله وبذاته وصفاته جميعا ، ويسلم باليوم الآخر ، وبالبعث والحساب ، لأن الله الذى يقضى ويقدر هو الله خالقه ورازقه ومعينـه علـى العمل ، ومانحه كل النعم حتى يستطيع أن يسير بها فى الحيـاة ، وهو فى الوقت نفسه تصديق بالكتـب والرسـالات ،لأن أخبـار القضاء والقدر جاءت فيها واضحة مبينة حدودها التى لا يرقـى إليها شك إلا عند المتنطعين ، سواء الـذين يريـدون أن يرمـوا الإسلام بالتناقض بين أقواله ، أو أولئك الذين يريدون التكاسل من

([1]) يقول الجبرية بأن الإنسان مجبر ، ويقول المعتزلة بحرية اختيـار الإنسـان لأفعاله، وذهب الأشعرية مذهبا وسط بين الجبر والاختيار فقالوا إن الإنسان مجبر فى الأمور التى لا يملك من أمرها شيئا ومخيـر فـى أفعالـه التـى سيحاسب عليها وهو اختيار سلوكه فى الحياة .

منطلق أن الله رازقهم لا محالة ، وبالطبع فهذان النموذجان مرفوضان تماما لأنهما يعنيان عدم فهم للقرآن أو السنة أو حتى سيرة الصحابة ، فإنهم فهموا المسألة على حقيقتها ، فأمنوا وسلموا وعملوا فأكرمهم الله وأعانهم على خلق دولة إسلامية قوية لأنهم فهموا حقيقة العلاقة بين الله والإنسان من خلال فهمهم للقضاء والقدر ، إنه فى أوضح صوره إقرار الله بالألوهية وللعبد بالعبودية وفى هذا الإطار تسير العلاقة ، لا جبر مطلق لأنه يتنافى مع العدل ، ولا اختيار مطلق لأنه يعنى الشرك ولذلك لخص الشيخ محمد الغزالى الموقف فى خاتمة إجابته على سؤال حول القضاء والقدر فى كتابه ، مائة سؤال عن الإسلام ؛ قائلا : (وأرى أن إنكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة) [1] .

وهذا لا يعنى وقوفه إلى جانب الاختيار المطلق ، وإنما كان نقدا لفكرة الجبر المطلق ، وقد جاء بعد استعرض واضح للمسألة .

وهكذا بعد استعرضنا لكافة أركان العقيدة دون الدخول فى تفاصيل المناقشات والخلافات ، نصل إلى ما نريد أن نصل إليه

(1) محمد الغزالى .مائة سؤال عن الإسلام ط٢ دار ثابت بالقاهرة ١٩٨٣ الجزء الأول س ١١ ص ٧٨ .

وهو هذه الرؤية المتكاملة لجوانب العقيـدة الإسـلامية الشـاملة والسمحة ، إنه بناء متماسك ينطلق من (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويتتابع فى إحكام شديد ليرتقى بالإنسان من درجة إلى أخرى حتى يصل إلى أعلى الدرجات وهو القضاء والقدر ، وقلنـا إنـه أعلاها لأنه دليل قاطع على صدق الإيمان ، وبه تمتحن النفـوس فى إيمانها فإما صدقت ، وإما فشلت فى الامتحان ، فمـن كـان يؤمن بالله ورسوله حقا فإنه سيسلم بقضائه وقدره دون اعتراض، لأنه بأبسط الصور لا يستطيع أن يحدد حكمة أر يقع ، ويصـدق أخبار الله عنه بأنه خير ، ومن كان غير ذلك فإنه سـرعان مـا يطلق لنفسه العنان ليبيح لنفسه أفعالا شائنة من منطلـق قضـائه وقدره ، ويأخذ فى طرح التساؤلات واحدا تلو الآخر؟ أما المؤمن فيمكن أن يرده موقف واحد فى القرآن دال بدرجة قاطعـة علـى ضرورة الإيمان به دون مناقشة لأنه داخل فى علم الله الذى لـم ولن يصل إليه أحد مهما أوتى من علم .

ذلك المشهد الذى صوره القرآن عن موسى والعبد الصالح الذى أعطاه الله بعض علمه ، وطلب منه موسى أن يصبحه فأخبر موسى أنه لن يستطيع الصبر معه وتحمل أفعاله لأنه باختصار لم يصل إلى مكنون علم الله مع أنه كليمه ، فألح عليه موسى واعدا

إياه بالصبر ، ثم قام الرحل الصالح [1] بعدة أعمال هي في ظاهرها شر مثل خرق السفينة ، وقتل الغلام وإقامة جدار بالقرية رغم أن أهلها أبوا أن يضيفوهما ، ولذلك اعترض موسى على كل واحدة بما يتناسب معها فعند خرق السفينة قال له (لقد جئت شيئا إمرا) وهو الخطأ ولكنه يمكن إصلاحه ، وعند قتل الغلام قال له (لقد جئت شيئا نكرا) وذلك أنه أمر لا يمكن إصلاحه ولن يقبله أحد ، وعن الجدار قال (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) مادام أهل القرية قد رفضوا أن يكونوا كرماء معهم وبالتالى لا يجب أن يكونوا هم أيضا كرماء مع أحد من أهلها وهو أمر منطقى الجزاء من جنس العمل .

ولكن الله أراد على لسان العبد الصالح أن يعطيه ويعطى المؤمنين من يعده درسا فى الإيمان بقضاء الله وقدره فلولا خرق السفينة لأخذها الملك الظالم الذى كان يسير فى البحر يأخذ كل سفينة صالحة غصبا (وهى قراءة عبد الله بن مسعود) وأما الغلام فكان مستقبله مظلم ملئ بالكفر وأبواه مؤمنان فحرص الله على أن لا يعكر عليهما حالهما ولا يفسد عليهما إيمانهما بسبب هذا الغلام فأمر بقتله ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان

([1]) بعض الروايات تقول إنه الخضر ، ولكن كثيرا من المفسرين يكتفون بقولهم، أنه رجل صالح أعطاه الله بعض علمه خاصة فى هذه المسألة .

تحته كنزلهما ، فليس لهما ذنب فى بخل أهل القرية ، وقـد اراد الله لهما أن يحفظ عليهما الكنز حتى يكبرا ويستخرجاه رحمة من عنده ، وكانت نهاية الآية عظيمة الدلالة على هذا المعنى الرائـع (وما فعلته عن أمرى) حتى لا يذهب ظن موسـى وبالتـالى أى قارئ للقصة أن هناك من يعلم غيبا ، أو يحظى بسر من أسـرار الله ، فعزا الأمر كله لله ، وهذا ما تفيده الجملة بطريقة عكسـية فإذا لم يفعله عن أمره فعن أمر من فعله ؟ إنه أمر الله الذى لا راد لأمره.

والهدف الأسمى من القضاء والقدر أيضا هو خلق ذلـك الفرد المتوازن الذى يعزو كل ما هو فيه سواء مـن سـرور أو حزن إلى الله ، وبالتالى لا يفرح لدرجة نسيان الله فإن إصابة خير شكر الله واعترف بأن الفضل من الله ، وإن إصابة مكروه أرجع الأمر لله فلا يجزع فيخرج من الإيمان فى الحـالتين فالسـرور ينسيه الله والحزن يجعله رافضا لأمر الله ومن ثم جمعها القـرآن الكريم فى قوله تعالى :" لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور " .

ولذلك يقول الرسول الكريم محمد صلى الله عليـه وسـلم "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابه خيـر حمـد الله

وشكر فكان خيرا له وإن إصابة شر حمد الله وخير فكان خيرا له" وهى وصية عظيمة من نبى كريم.

وهكذا تتكامل أركان العقيدة الإسلامية للجانب النظرى منها ، فكل ركن منها يؤدى إلى الآخر ويتدعم به ، إن هذا دليل واضح على أن المنبع واضح والصراط المستقيم متماسك لا تتفرق به السبل ولا تضل به العقول وإن ضلت الأهواء المنحرفة وكله منبثق من هذه الجملة البسطة فى تركيبها والعميقة الواسعة فى معناها (لا إله إلا الله) ولذلك صدق رسول الله صلى عليه وسلم فى قوله عنها " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى ، لا إله إلا الله) انها بحق أفضل قول وأعظم مبدأ منه تتفرع الفروع وتعود لتصب فيه وتؤكده وتعمقه فى قلب المؤمن.

الفصل الثانى

العبـــــادات



تمثل العبادة الجانب التطبيقي في الإسلام ومن ثم جـــاءت شاملة لكل أركان العقيدة ، ومربية للفرد المسلم تربية صالحة تعم جميع أحواله فمنها تربية للبدن، وتربية للروح، وتمـــتحن نفســـه، أهي بخيلة على الله بنفسها ومالها أم كريمة، وتمتحنه في تفضيله لله على نفسه ، ولم يكمن تحديدها بالأربعـــة الصـــلاة والزكـــاة والصوم والحج ، عبثا ، بل كان مرتبا ترتيب إلهيا محكما فسبحان من له الأمر ، والتدبير وهي في نفسها تتداخل تداخلا متقنا أيضا فلو نظرنا إليها جميعا لوجدنا كل واحدة منها متمثلة في الأخـــرى بدرجة واضحة وليست عن طريق التعسف في التأويل ، وإنما هي قريبة المأخذ لكل ذي لب صحيح ربي على العقيدة الكاملة كمـــا أوضحناها في الفصل الأول، وهذا ما سنبينه بالتفصيل.

أ- الصـــــلاة

هي أول العبادات المفروضة على الإنسان، وهي أهمهـــا على الإطلاق ولأهميتها فقد فرضت في ليلة التكريم الإلهي لنبيـــه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان ابن هشام يذكر أن الصلاة ابتداء فرضت قبل ذلك وكانت ركعتين في كل صلاة ثم أتمها الله سبحانه وتعالى على نبيه في ليلة الإسراء والمعراج لتكون أربعا في الحضر وركعتين في السفر، وكان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يصلي قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهو ما أشار إليـــه

القرآن بقوله: " وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار " وبعد ذلك فرضت ركعتين، ثم تمت فى الليلة المباركة [1] وبصرف النظر عن هذا التاريخ إلا أننا نقف هنا على المدلول ، ففى كل الحالات فقد فرضت الصلاة أولا ، وربما قريبا بعد نزول القرآن ، وذلك لأهميتها القصوى فى تطبيق مبادئ الإيمان وتثبيتها ، أو تدعيم العقيدة فقد تلازمت مع الفترة التى ركز فيها القرآن الكريم على هذه العقيدة وهى الفترة المكية ، ولذلك قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين " وجعلها فرقا بين المسلم والكافر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة " [2] والأحاديث كثيرة فى الصلاة وفضلها وأوقاتها ، ولنبين لماذا كل هذا الاهتمام بالصلاة ، إنها عبادة جامعة لكل مبادئ وأركان الدين الإسلامى ومن هنا جاءت أهميتها، إنها تتضمن العقيدة والعبادة فى آن واحد ، فإذا تأملنا ركعة واحدة فى الصلاة لتأكد لنا هذا المعنى ، فهى تبدأ بلفظ (الله أكبر) وهى صياغة أخرى ومختصرة لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وهى عنوان الإيمان بكل مشتملاتها التى تحدثنا عنها فى

---

(1) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا وآخرين ط1 الحلبى 1955 ج1 ، 243 وما بعدها .

(2) صحيح مسلم ط الحلبى د.ت الجزء الأول /49 .

الفصل الأول ، إن قول المؤمن (الله أكبر) يعنـــى أنـــه يســـلم لله بالوحدانية وبكل الصفات التابعة للوحدانية ولذلك عرفت بتكبيـــرة الإحرام أى الدخول فى حرم الله سبحانه وتعالى، ثم يتلوها بقراءة الفاتحة وهى تضمن جوهر معانى القرآن الكريم ولذلك سميت بأم الكتاب وتتضمن الحديث عن صفات الله تعالى والإيمان بطريقـــة المستقيم ، والدعاء باتباع هذا الطريق ، ومن ثم فإن العبد حـــين يقرأ الفاتحة فإنه يصدق بالقرآن وهو كتاب الله الخاتم والمتضمن لكل كتبه السابقة عليه ، أى يعنى التسليم والإيمان بهذه الكتـــب ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسى : (قسمت الصلاة بينى وبـــين عبدى نصفين : نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل: فـــإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله عز وجـــل حمـــدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى على عبـــدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله مجدنى عبدى . وإذا قـــال : إياك نعبد وإياك نستعين، قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى مـــا سأل . وإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الـــذين انعمـــت عليه غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) ويقول الغزالى فى تعليقه على هذا الحديث : وتكـــرار هذا المعانى حق، فإن نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادر ومدح مستحب ، ولا شعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بمـــا كســـبت

يكفكف الغرور بالدنيا ، وتعهد المصلى أن يعبد الله وحده ويستعين بالله وحده هو التوحيد، فإذا وفى المصلى بعهده وسأل ربه من رفده منحه ما طلب [1] .

إنه يؤكد ما ذهبنا إليه من أنها جماع الإيمان وفروعه؛ الله الواحد الرحمن الرحيم الذى له كل شئ ، والإيمان باليوم الآخر ، والعبودية لله وحده ومن ثم عبادته ، والاستعانة بالله وحده، وهكذا تتجمع العقيدة والعبادة فى جزء صغير من ركعة واحدة ، ثم يتبع ذلك بقراءة القرآن الذى هو وسيلة التخاطب بين العبد والله ثم يركع المصلى فيعلن الخضوع التام لله سبحانه وتعالى ، فلا ينحنى المؤمن إلا لله وهو تعبير عن رضائه به والرضا بالله يعنى الرضا بقضاء الله وقدره ، ثم يرفع فيحمد الله ويكبره ، ثم يسجد زيادة فى إعلان الطاعة والرضا ، وإذا كان الله قد أسجد الملائكة لآدم فإن الشكر لله على هذا الإكرام يكون بمثل الصنيع ، فالسجود لله هو خضوع وهو شكر لله على نعمته ، إنها كلها مظاهر توكيد للعقيدة وتربية للمسلم فى الوقت نفسه على الطاعات، ويتكرر هذا فى كل ركعة من ركعات الفريضة أى سبع عشرة مرة فى المفروضات ، فإذا أضيفت إليها النوافل وخاصة الراتبة وهى عشر تكون سبعا وعشرين مرة ، ألا يؤكد ذلك إيمانا الفرد بربه ؟

---

(1) الغزالى ، مائة سؤال عن الإسلام ، ج١/٨٦ .

ثم ننظر فنجد بقية العبادات التى توالى فرضها بعد الصلاة ماثلة فيها فنجد الزكاة وخلاصة معناها طهارة والصلاة طهـــارة (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مـــرات هل يبقى من درنه شئ ؟ قالوا لا يا رسول الله ، قال فذلك مثـــل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا) (متفق عليه) وهـذا يعنى تلاقى الصلاة والزكاة فى الهدف ، فإذا جئنـــا إلـــى معنـــى الزكاة الاصطلاحى وهو مقدار من المال يخرجه الإنسان طهارة لماله نجده ماثلا فى الصلاة أيضا فالإنسان يقتطع من يومه الذى يعمل فيه وليله الذى ينام فيه وقتا لو حسب بالمال لوجد أنه يمكن أن يزيد على النصاب المقرر لها : إنها زكاة فى صورة راقيـــة زكاة عن المال وعن الجسم فى آن واحد .

فإذا بحثنا فى الصلاة عن الصوم وجدناه ماثلا فيها بأرقي درجاته ، إنه امتناع عن الطعام والشراب وعن إتيان الحلال فـــى النهار ، وهذه كلها ممنوعة فى الصلاة بل يزيد عليها منع عـــن الكلام الذى قد يفسد الصوم العادى (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) وهذا ما يتحقق فى الصلاة باسمى درجة ، فالكلام ممنوع فى الصلاة ومحظورة على مخاطبة لله وقراءة القرآن وهو أطهر الكلام أى أنه يزيد من سمو الصيام ، بل إن الصوم فرض من أجله " شهر رمضان الذى أنزل

فيه القرآن "فقد حدد رمضان شهرا للصوم تكريما له لنزول القرآن فيه ، والمسلم يقرأ القرآن فى الصلاة فرضا فلا تصح الصلاة إلا به ، وإذا كانت قراءة القرآن فى رمضان نافلة فإنها فى الصلاة ركن ، ومن نوافل الصوم القيام وهو متحقق فى الصلاة تلقائيا ، والاعتكاف وهو متحقق أيضا ، إن الإنسان وهو يصلى لا علاقة له بأحد إلا بالله سبحانه وتعالى ، إنه معتكف على نفسه لا يلتقى بأحد ، حتى إن المصلى فى الصلاة الجمعة إذا قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغى ومن لغى فلا جمعة له ، وهذا حكم معروف ومشهور ، أى أنه حتى ولو كان معه أحد فهو فى نفسه ، إن الصلاة صوم يصل إلى أعلى درجات الصوم رقيا.

والصلاة حج فإذا كان الحج قصد الله سبحانه وتعالى فى بيته المحرم فإن الصلاة أيضا قصد لله تعالى فى بيته المحرم وعنوانه أمران : التوجه إلى القبلة " ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" [1] والأمر الثانى هو المسجد الذى هو بمثابة بيت الله الذى يتوجه إليه فهو بديل فى الأرض التى يسكن فيها الإنسان . وكل المساجد لله " وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا "[2] . فإن

([1]) البقرة /١٤٩ .

([2]) الجن/١٨ .

قال قائل : وماذا عن الذى لا يستطيع الذهاب إلى المسجد بنفسه ، كيف نقيم هذه الموازاة ؟ والإجابة على ذلك سـهلة ، إن الأرض كلها جعلت مسجدا وطهورا للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يكون المسجد موضوع السجود ، وليس المقصود مكانا بعينـه ، وبالتالى تتحقق كافة أركان الإسلام الخمس فى الصلاة ، وبهـذا استحقت أن تكون الأول وأن تكون الأساس ، وأن تكون الفـارق بين الكفر والإيمان واستحقت أن تنال شرف الفرض فى السـماء وليس فى الأرض.

وليس عجبا بعد ذلك أن تكرر وتصبح خمسا، وهى موازاة بينها وبين الأركان الخمسة لتشمل الليل والنهـار "أقـم الصـلاة طرفى النهار وزلفا من الليل " [1] وهذا يعنى الزمـان كلـه لأن اليوم رمز للزمن ويعنى هذا أنها تساوى العقيدة والعبـادة علـى السواء .

ومن هنا كان حرص الإسلام عليها بصفة مؤكـدة فهـى الفريضة الوحيدة التى لا تـرتبط بحـد ولا تسـقط إلا بضـياع الطهارة، فالأركان كلها الثلاثة الباقية : الزكاة والصـوم والحـج تشترط حدودا معينة لأدائها ، فالزكاة النصاب ، والصوم القـدرة وعدم المرض وعدم السفر ، وإن كان مرضـا مزمنـا سـقطت

([1]) هود/١١٤

وعوض عنها بالفدية ،والحج للمستطيع استطاعة مالية وصحية وغيرها ، ومرة واحدة فى العمر ، أما الصلاة فلاشتمالها على كل هذا لا تسقط لا بمرض ولا بعلة ولا بقدرة ، ولا بنقص مال، فمن لم يستطع أداءها واقفا يؤدها قاعدا ومن لم يستطع هذه يؤدها نائما مستلقيا على ظهره ومشيرا إلى الكعبة وجهتها ، إنه ليس تشديدا من الله بل حبا منه لنا لنظل على صلة به ويغنينا ويعوضنا عما يمكن أن يفوتنا من أداء الأركان الأخرى، ولذلك لا عجب أن يكون أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة هى الصلاة فإن قبلت قبل وسائر عمله وإن ردت رد وسائر عمله ، لأنه من يتخلى عنها كيف يتصور أنه يؤدى الأركان الأخرى وبصدق وإخلاص.

ولا عجب أيضا فى أن يكتفى بها الله سبحانه وتعالى فى الفترة المكية الأولى فلا يتبعها بفريضة أخرى .

وإذا تحدثنا عن تمثيلها للجانب الثانى من عناصر التطبيق الإسلامى وجدانها دالة عليه ، فإذا كان جانب المعاملة يمثل العنصر الثانى أو القسم الثانى من أقسام التطبيق العملى لمبادئ الإيمان فى الصلاة تحقق هذه المعاملة فى أروع صورها ، فإذا كانت الحدود التى وضعها الإسلام للمعاملات تهدف إلى بناء صورة نموذجية للمسلم ، يحب أخاه، ولا يبغضه ولا يحسده ولا يعتدى عليه ، ومن ثم يكون جماعة متماسكة، فإن الصلاة تحققها

فى أروع صورها ، فالمسلمون فى الصلاة جماعة واحدة متخلصة قلوبهم من رجس الدنيا بكل صوره لا بغضاء ولا تناحر ، إنما هم يقفون كالبنيان المرصوص ، وهم منظمون يؤدون الحركات فـــى لحظة واحدة يؤمهم إمام واحد يقودهم فى طاعة الله ، ومـــن ثـــم كانت صلاة الجماعة تفوق الفرد بسبع وعشرين درجة ، وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم عليها كما حض القرآن على صلاة الجماعة بأن جعل المسلمين يجتمعون فى كل أسبوع مـــرة فـــى صلاة جامعة هى الجمعة فقال تعالى :" يا أيها الـــذين أمنـــوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكـــر الله وذروا البيـــع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " [1] .

ذلك أن فضل صلاة الناس فى جماعـــة يتعـــدى جانبـــه الروحى إلى جانب آخر اجتماعى أنه مظهر من مظاهر التساوى بين الناس فلا فرق بين غنيهم وفقيرهم ولا قويهم وضـــعيفهم ولا كبيرهم وصغيرهم ، وعلى هذا فإن صلاة الجماعة فى الإســـلام إلى جانب مالها من قيمة فكرة تشير إلى الأمل فى تحقيق الوحدة

---

(1) الجمعة/٩ ،

الضرورية للبشر كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التى ميزت بين إنسان وآخر [(1)] .

وقد أورد يوسف القرضاوى فى كتابه (العبادة فى الإسلام) كثيرا من أقوال المستشرقين مدحا فى صلاة الجماعة التى بهرتهم وعدوها مظهرا مميزا للمسلمين عن غيرهم من أهل الديانات والتى توضح إلى أى حد تأثروا بها لحد الإجلال [(2)] .

أليست الصلاة بعد كل هذا جديرة بهذه المكانة التى وضعها لها القرآن ووضحتها السنة ؟ إنها عبادة جامعة لكل أركان الدين الإسلامى، عقدية وعبادة ومعاملات إن خيرها لا يقتصر على تقوية الجانب الروحى فى الإنسان فقط إنما يتسع ليشمل كل جوانب دينه ، إنه ينمى فيه الإيمان وينمى فيه حب العبادة ، وينمى فيه السلوك الطبيب الذى رسمه الدين للمسلم ، ولذلك كانت جديرة بأن يتطوع بها ويتعبد بها فى كل وقت مفروض ونافل ، وهذا ما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم حينما كان يحرص عليها ليلا كما يحرص عليها نهارا فقد كان

---

(1) محمد إقبال / تجديد الفكر الدينى نقلا عن يوسف القرضاوى العبادة فى الإسلام نشر دار الجميع للطبع والنشر بالقاهرة د.ت ص ١٣ ، وقد عدد مميزات الصلاة فردا وجماعة بالتفصيل فمن يريد مزيدا منه فليرجع إليه .

(2) المرجع السابق /١٩٤،١٩٣ .

يقوم الليل حتى تتورم منه الأقدام ، ولا غرو فإنه أعرف الناس بمعانيها كما أنه أعرف العباد بربه واتقاهم له .

ب- الزكاة

وتأتى الزكاة قرينة الصلاة لتؤكد لنا معنى هذا التكامل العظيم بين مبادئ هذا الدين ، وبالرغم من أنها لم تفرض فى العهد المكى ، إلا أن إشارات كثيرة إليها وردت فى القرآن المكى ولكنها جاءت فى صورة اختيارية ، وفى صورة حض المسلمين على فعلها وأول صورة كانت فى سورة الضحى بقوله تعالى " وأما السائل فلا تنهر" [1] وذلك بعد أن عدد الله نعمه عليه أمره بألا ينهر السائل ومعناها أيضا إن لم يعطه فعليه أن يكون طيبا فى معاملته وهى صدقة .

كما ذكر فى سورة المدثر عن صفات أهل النار تلازما بين ترك الصلاة وترك الزكاة فقال :" قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين " [2] ومرة أخرى فى سورة المعارج يقول: وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " [3]، ومعنى كل هذا أنه كانت هناك إشارة إليها فى ذلك العصر وإن لم تكن قد

([1]) الضحى /١٠.

([2]) المدثر/٤٤.

([3]) المعارج / ٢٤ ، ٢٥ .

فرضت فرضا شرعيا وركنا أساسيا كما حدث فى المدينـــة وقـــد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بها وبنصابها المحـــدد: العشر فيما روته السماء ، ونصف العشر فيما سقى بآلة .

ولأهميتها توارد ذكرها مع الصلاة فى معظـــم المواضـــع التى ورد فيها أمر بالصلاة فى القرآن الكريم ن وصارت عنوانا للمؤمنين " ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقـــين ، الـــذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " [1] ، وقد تكرر هذا فى القرآن الكريم " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " ولهذه الأهمية كان غضب أبى بكر رضى الله عنه على ممن امتنعـــوا عن إيتاء الزكاة وقال قولته المشهورة (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه).

ولنبين أهميتها التى كانت سببا فى هذه المكانـــة ، والتـــى تسير مع الخط الذى نسير عليه وهو بيان المنهج المتكامـــل ، إن الزكاة أيضا تتمثل فيها العبادات الأخرى بجانـــب المعـــاملات ، فالزكاة مظهر من مظاهر الإيمان بالله ، إنها إيمان بالله الواحـــد ، وبصفات الرازق ، المعطى ، المغنى ، فالمسلم حينما يؤتى الزكاة فإنه يسلم بأن الرزق الذى بين يديه إنما هو نعمة من الله يجب أن

---

(1) البقرة/ ١، ٢ ،٣ .

يتصرف فيه كما أمر سبحانه وتعالى والتسليم بهذه يعنى والتسليم لله بالألوهية وفى الوقت نفسه الإيمان باليوم الآخر ، لأنه ببساطة يؤدى ما عليه خوفا من سؤال الله له عن حقه فى ماله ، وبالبعث والحساب وبالقضاء والقدر ، فكل رزق ينعم به المؤمن هو مــن قضاء الله وقدره .

وإذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربه ، فإن الزكاة صلة أيضا، وهو من معناها لقد قال رسول الله صلى الله عليــه وســلم لمعاذ حين بعثه واليا على اليمن (أعلمهم أن الله افتــرض عليــه صدقه تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم) [1] ، ولأهمية هــذه الصدقة فإنها تصل إلى يد الله مباشرة ، كما أنها صلة للأرحــام وقد ورد فى الحديث القدسى (خلقت الرحم واشتققت لها اسما من اسمى فأنا الرحمن الرحيم فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) ويبين هذا الحديث كيف أن الصدقة زكاة أو نفلا (صدقة) فإنهــا تصل إلى الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم تلتقى مع الصــلاة فــى صلتها بالله سبحانه وتعالى .

وهى تطهير للنفس من حبها للمال الذى هى فتنة وبالتالى تستطيع أن تتوقى شح نفسها :" ومن يوق شح نفسه فأولئــك هــم

([1]) رواه الشيخان .

المفلحون" [1] ، ويقول تعالى :" خذ من أموالهم صدقة تطهـــرهم وتزكيهم بها وصلى عليهم إن صلاتك سكن لهم " [2] ، إذن فهى طهارة للنفس من شهواتها التى أهمها المال وقد قرنها فى الآيـــة بأمر منه سبحانه وتعالى أن يصلى عليهم لطهارتهم فقد اصـــبحوا يستحقون هذه الصلاة لتكون سكنا لهم .

وفيها معنى الصوم الذى يعد تأديبا للنفس وتزكية لها عن الشهوات فإن الزكاة أيضا تحقق هذا الهدف بأعلى صوره ، وإذا كان الصوم امتناع عن الطعام والشراب وهو حق للإنسان فـــإن الزكاة صوم عن حق الله الذى فرضه وخصصه للفقراء فى مـــال الأغنياء، فإن أداه المسلم حق الأداء فقد صـــام عـــن حـــق الله ، وبالتالى يستحق رضاء الله ، وهذا هو ما جعل أبا بكر يتشدد فى إيتائها ، لأنه اعتبرها حقا لله وليس لمحمد صلى الله عليه وســـلم ومن ثم أخذ يقاتلهم دفاعا عن هذه الحق .

وهى تشترك مع الحج فى أمور كثيرة ، فإذا كان الحـــج قصد لله وترك للأهل والمال ، وكذلك بذل المال فى سبيل الله فإن الزكاة تحقق ذلك ، فإنها إخراج المال من اجل الله إذ لا يوجد من يفرض على المسلم إخراج ماله إلا الله سبحانه وتعـــالى ، فهـــو

([1]) الحضر / ٩ والتغابن /١٦ .

([2]) التوبة /١٠٣ .

يتوجه بها إلى الله قبل أن يتوجه إلى البشر ولذل كانـت مكانـة المتصدق عالية كما أشارت إلى ذلـك آيـات القـرآن الكثيـرة وأوضحها دلالة على هذا المعنى قوله تعالى :" وسيجنبها الأتقـى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمـة تجـزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى " [1] فهو لا يعطى مَاله ابتغاء مرضاة أحد إلا الله سبحانه وتعالى ولهذا استحق أن يبشره الله بالرضا وهو الجنة ، ومن هذا المنطلق كان رد أبى بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أتاه بالمال ، مـاذا تركـت لأولادك يا أبا بكر ؟ فيقول : تركت لهم الله ورسوله .

هذا من ناحية العبادات فإذا انتقلنا إلى جانب المعـاملات وهى ما يخص المجتمعات فإن الزكاة تحقق التوازن الاجتمـاعى بين أفراد المجتمع ولذلك كان حقا معلوما للسـائل والمحـروم ، فبإخراج الزكاة تيسير لكل أفراد المجتمع حظا من المعيشة معقولا وليس بالضرورة أن يكون متساويا ولكن على الأقل يضمن لهـم قدرا من الحياة ، فليس من المعقول أن يعيش البعض فى ثراء ولا يجد البعض الآخر ما يأكلونه ، لقد اقتضت العدالـة الإلهيـة أن تعطى للبعض وفرة من المال وفى الوقت نفسه تعطى منه نصيبا

---

(١) الليل /١٧،١٨،١٩،٢٠،٢١ .

للبعض الآخر، ولذلك يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم ليس منا من بات شبعان وجاره جوعان.

كما أن إخراج الزكاة بحقها المشروع تساعد الدولة علـــى كفالة الآخرين وذلك من خلال بيت مال المسلمين الذى تجتمع فيه هذه الأموال ، وفى الأوقات التى كانت تجمع الزكـــاة بصـــورتها المثلى كانت الدولة تعيش أروع أيام حياتها ؛ لأن حصول الفقراء على حقهم يزيل من قلوبهم الحقد والحسد للأغنياء، ومن ثم تسود روح الإسلام الحقيقية التى يجب أن يبنى عليها المجتمع الإسلامى الأمثل الذى يقوم على المحبة والتكافل فلا يهتز ولا يلـــين أمـــام أعدائه .

وخوفا من أن يتولى أحد ولاة المسلمين الضعفاء أمورهم فينفق أموال الزكاة فى غير مصرفها الحقيقى ، حدد الله ســـبحانه وتعالى مصارف الزكاة فقال: " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكـــيم " [1] ، وهـــى موضحة بشكل يقطع على أى صاحب هوى طريق التلاعب فيها وتويلها إلى من يهواهم ، وهى مصارف لو تأملناها لأدركنا كيف تكون الزكاة ركنا أساسيا فى بناء المجتمع ، فهى تدفع الحاجـــات

---

(1) التوبة / ٦٠ .

التى يمكن للناس أن يرتكبوا الجـرائم مـن أجلهـا ، والفقـراء والمساكين هم أول فئة لأنها حالة عامة، ثم يأتى بعد ذلك بند سد باب الجشع والتلاعب فأعطى للعاملين عليها حقا حتى لا ينظروا إلى الباقى من مال المسلمين فيعبثون به ، وفى الرقاب أى تحرير الرقاب لمن تقع عليه دية كنوع من حل الأزمات والصراعات بين الأفراد ، والغارمين الذين يقعون فى دين ولا يجدون وسيلة لسداد الدين فيحق لهم أخذ نصيب منها حتى لا يحدث ما نراه وممن هذه الأمور الحيوية فى سبيل الله ، أى فى جميع الأحوال التى يظـن أنها نافعة للدين مثل المساجد والمستشفيات والمدارس وغيرها من الأبواب التى تفيد عامة المسلمين ويكون هدفها هو نشر ديـن الله أو مساعدة عباد الله من الفقراء والمرضى ، وابن السـبيل يـأتى آخرا ، لأن المقيمين من ذوى الحاجات أولى بهذه الصدقات .

ج- الصـــوم

وهو الركن الرابع ، والعبادة الثالثة ، وهو وسيلة أخـرى لتطبيق الأيمان إنه امتحان للنفس فى تحقيق إرادة الله تعالى فـى الإنسان ، إنه ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ، ولكنـه تحكم فى غرائز النفس لصالح الإرادة الإلهية التى أودعها الله فى الإنسان، ولذلك حدد الغاية من فرضه فقال تعالى :" يا أيها الذين أمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قـبلكم لعلكـم

تتقون " [1]، إذن فالهدف من الصوم التقوى لا تكون إلا بتحقق المبادئ الأساسية للأيمان بالله ، وبالتحقق من العبادات السابقة عليه ، إنه ترتيب إلهى محكم ، يبدا بالله والتعريف بوحدانيته وينتهى بالحج إلى الله .

ومن هذه الآية نعلم أنه كان مفروضا على الأمم السابقة لنفس الهدف ، وأن كان مختلفا فى كيفيته من أمة لأخرى ، لكنه جاء جامعا فى الدين الإسلامى ومحددا تحديدا واضحا لا يرقى إليه جدال ، ولا يختلف حوله الناس ، وذلك لأن الهدف منه هو جماع الإيمان المتمثل فى قمته وهى التقوى .

وهذا اللفظ يقودنا إلى الخط الأساسي الذى نسير عليه من منهج تكاملى ، فلن تتحقق التقوى إلا بالإيمان بالله الواحد الذى له الأمر والطاعة والعبادة قائمة على تحقيقه ، فكيف يصوم المسلم ويمنع نفسه عن حاجاتها الضرورية كالطعام والشراب والغريزة إذا لم يكن مؤمنا بالله ذاتا وصفاتا ، إنه من الرضا الذى يورث الطاعة ، إنه نموذج أعلى للطاعة ، ولهذه الخصوصية كان الصوم علاقة خاصة بين الله والإنسان (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) لأن واحدا لا يستطيع تحديد الصائم من عدم الصائم إلا الله ، ولذلك جعله الله سبحانه وتعالى

---

(1) البقرة /١٨٣ .

له ، وذلك لأن جميع الأفعال يمكن أن يظهر فضـلها ويعرفها الناس ويعرفوا صاحبها ، فالرجل إذا صلى عـرف النـاس أنـه مصل ، وإذا تزكى عرف الناس - على الأقل الذين ينالهم إحسانه وتصلهم صدقته - أنه مزك ، ولكن الصائم لا يعرف صومه من عدمه إلا الله وحده .

ومن هنا كان الصوم موازيا للإيمان الحـق ، فالعبـد إذا نطق بالشهادتين لا يعرف صدقة إلا الله وحده هو الـذى يعـرف مدى تعمق المفهوم فى قلبه ، ولذلك كان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)

أى من صامه صوما حقيقيا يعدل الإيمان الحقيقى لا تكون عليـه شائبة يصبح نقيا ويكون جديرا بمغفرة الله له .

والصوم يعنى الإيمان بصـفات الله العـاطى والـرازق والمغنى والمانع والضار والنافع فالمسلم بصومه يدرك قيمة عطاء الله له فى نعمه التى أنعم عليه بها ، ويعرف قيمة رزقه ، وهـو الذى يغنيه عن الطعام والشراب ، ويسلم لله بأنه المانع كما أنـه الوهاب ، وعندما يستطيع تحمل مشقات الصوم ولا يصـيبه أذى يعرف أن الضر والنفع بيد الله سبحانه وتعالى ، كما أنـه إيمـان بالغيب إنه تطبيق عملى على مسألة الغيب ، فإذا كان يريد مـن

البشر أن يصدقوا بأنه صائم مع أن أحدا لم يره ولم يعرف مـــاذا كان صائما حقا أم لا ، فإنه يستنتج أيضا مبدأ الإيمان بالله وبغيبه، فيصل إلى المسألة من أيسر الطرق .

وحينما يؤمن بالغيب فإنه يؤمن بالملائكة والبعث والحساب واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، لأنهم تابعون للإيمان بالغيـب فكل عنصر منها يمثل جزءا من هذا الغيب الــذى هــو مقيــاس حقيقى لصدق الإيمان ، والصوم يحققه عن طريق العلاقة الخاصة بين الله والصائم لكل ذلك جعل الله الصوم له ، وهو الذى يجزى به ، إنه ينميه للجانب الروحى الذى يكون مهيأ دائما للإيمان بهذه المبادئ لأنه جزء منها ، فالروح من أمر الله " ويســألونك عــن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " [1].

فإذا انتقلنا إلى تلاقى الصوم مع الصلاة فإنهما يتلاقيان فى نقاط كثيرة ، منه الطهارة ، فإذا كانت الصــلاة طهــارة للبــدن بالوضوء والغسل والنظافة وطهارة للروح بهذا اللقاء المتجدد بين الله والعبد ، فإن الصوم يحقق هذين الهدفين كأسمى مــا يكــون التحقق ، فحينما يمتنع الصائم عن الطعام والشراب فإنــه يطهــر بدنه من تأثير الغرائز وتحكمها فى الروح وتأثيرها علــى الإرادة التى غالبا ما تضعف أمام هذه المتطلبات الغرائزية ، وهو بهــذا

---

(1) الإسراء/ ٨٥ .

يسمو بالروح من أجله ، حتى ولو كان هذا التذكر فـــى لحظـــات ضغط الجوع والعطش (صـــوموا تصـــحوا) وعلـــى الجانـــب الروحى " إذا جاء رمضان غلقت أبواب النار وفتحت أبواب الجنة وصفدت الشياطين " [1] إذ حينما تعلو الروح تكون أقـــرب، إلـــى الجنة وأبعد عن النار لأن منافذ الشيطان قد سدت وبالتالى تسلسل الشياطين لأنها لا تجد لها مسلكا إلى داخل القلب الملئ روحانية ، والمغمور بنور الله سبحانه وتعالى ، وبهذا يتلاقى الصـــوم مـــع الصلاة فى الجانبين البدنى والروحى تلاقيا يوحى بتكامل أركـــان الإسلام .

لهذا السبب استن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمـــرين فى رمضان هما الصلاة وقراءة القرآن ، فقط أمتن صـــلوات الله وسلامه عليه سنة القيام ، وهو رمز دال على تلاقى الصوم مـــع الصلاة ، وهو يريد أن يتجمعا مع بعضهما ، وتتلاقى فرائـــدهما فيتحقق للإنسان درجة من الرقى وهو مـــا عبـــر عنـــه القـــرآن بالتقوى، وجعلها يوميه مع أداء الصيام يوميا ، وبالرغم من أنهـــا كانت تطوعا إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم داوم عليهـــا ، وأصبحت راتبة ، والسنة تقترب من الفرض ، ولكنـــه لطولهـــا وكثرتها جعلها تطوعا حتى لا تصبح ملزمة لغيـــر المســـتطيع ،

---

(1) البقرة / ١٨٥ .

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف حتمية الصلاة ، فــإن جعلها فريضة كانت تكليفا للإنسان بما لا يستطيع .

كما استن الرسول صلى الله عليه وسلم قــراءة القــرآن ، وهى متفقة مع صوم رمضان لأن رمضان فرض فيــه الصــوم تكريما للقرآن والليلة المباركة التى نزل فيها فقال سبحانه وتعالى: " شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن تورث القلــب نــورا لأن القرآن نور يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وأعظــم لحظة مناسبة للإستزاده من نور القرآن هى اللحظة فى أى وقــت من السنة بمثل ما توجد فى رمضان .

وإضافة إلى هذا ووصولا إلى أرقــى الــدرجات اســتن الرسول صلى الله عليه وسلم سنة الاعتكاف فى رمضان ، والتى يعيش فيها المعتكف بين يدى الله خالصا صائما مصليا فهو يهجر الدنيا هجرانا تاما لا يخرج من المسجد إلا لعظائم الأمور، وفيهــا يصوم ويصلى ويقرأ القرآن ويعيش هذا الجو الذى يضفى علــى المسلم صفاء يدعم الإيمان ويقويه .

فإذا لا حظنا أكثر من هذا لوجدنا أن سنة الاعتكاف كانت بمثابة تمهيد للحج لأن المسلم فى الحج يهجر الدنيا ؛ ماله وأبناءه ويعيش فى رحاب الله طائفا بيته فى أبسط دلالتــه تخلــص مــن مظاهر الدنيا وهو الإحرام وهذا ما سنفصله عند الحــديث علــى

الحج ، وليس عجبا بعد ذلك أن تكون الفريضة التالية للصوم هى الحج .

أما عن علاقة الصوم بالزكاة فهى واضحة جلية فالزكاة الطهارة والصوم يحقق الطهارة بأوضح معانيها ، وتزكية لنفس والصوم كذلك ومن هنا يلتقيان فى الهدف الروحى ، فإذا كانت الزكاة تجنب النفس شحها خاصة فى مسألة المال فإن الصوم يجنب النفس شحها من كافة الجوانب ، وإذا تمكنت النفس المسلمة من التخلى عن متطلباتها الضرورية فإنها تكون أقدر على الضبط أمام المال الذى هو زينة الحياة الدنيا ، إذ من يستطيع أن يستغنى عن الأصل يمكنه فى التحكم فى الفروع .

ولذلك استن الرسول صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر وجعلها دليلا على صدق الصوم ، وتروى الروايات عنها أن هذا الأمر جاء بصيغة الفرض ، (عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعا من تمر أو صاعا من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين) [1]، وقد جاء الحديث بأربع طرق وروايات كلها تؤكد أنه بلفظ (فرض) ما عدا واحدة جاءت بلفظ (أمر) وهى فى معناها لا تختلف كثيرا ؛ لأن الأمر هو فرض ، وكلا اللفظين

([1]) صحيح مسلم / ج١ / ٣٩٢ .

يوحيان بأهمية المفروض أو المأمور به وهى زكـاة الفطـر أو صدقة الفطر .

وهذه المعانى كلها تؤكد تلاقى الصوم والزكاة فى الهـدف والمضمون فالصوم نفسه زكاة عن الجسد والصـحة وكـأن الله سبحانه وتعالى يقول للإنسان لقد متعتك أحد عشرا شهرا وتركت لجسدك الحرية يتمتع ما يشاء خلالها فى الحلال أيضا ، فاتركـه شهرا بتسخيره لى وطاعته لى ، وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤكد لله سبحانه وتعالى أنه استوعب المعنى المقصـود فعبر عنه بالأمر بزكاة الفطر .

ولشمول رمضان لكل هذه المعنى حباه الله بليلة القدر التى هى خير من ألف شهر أى أن عبادتها وطاعتها تساوى بل تفضل عبادة ألف شهر ، ولذلك تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهـم من كل أمر وهى سلام حتى مطلع الفجر ، وهذا أمر طبيعـى ، لأن الملائكة والروح حينما تتنزل على الأرض فـإنهم ينشـرون السلام ، لأن المكان وهو الأرض لا يتسع للشياطين والملائكـة ، ومادامت الملائكة تنزل بأمر الله فإن الشياطين تذهب ، وهذا يؤكد المعنى الروحى لرمضان ، وتتلاقى جميع الروافد مـع بعضـها لتؤكد أنها تنهل من منبع واحد وتصـب فـى مصـب واحـد ، فرمضان شهر العبـادة والصـلاة والزكـاة والـدعاء والقـرآن

والملائكة، ومن ثم يحقق الهدف الأسـمى منـه وهـو التقـوى بالإضافة إلى الهداية والرشد وهما لا يكونان إلا بالإيمان الـذى يعبر عنه بالصراط المستقيم فى القرآن الكريم ، وهما ما انتهت به المجتمعات الآيتان اللتان وردتا بعد ذلك " شهر رمضان " وأيـة التكريم " وإذا سألك عبادى عنى " إن الناس حينما يطيعـون الله سبحانه وتعالى يصبحون عباده ، ولذلك خصهم بالعبودية ونسبهم إليه فقال (عبادى) وماداموا قد أطاعوا فإنهم يستحقون أن يكونوا قريبين من الله ، بل هو الإكرم يكون قريبا مـنهم ، هـو أعظـم تكريم لمن يؤدى لله حقه .

هـ - الحـــج

وهو الركن الخامس والعبادة الرابعة ، وبه تمام الإيمـان وجماع العقيدة ، واكتمال العبادات ، وهو عبادة خالصة لله سبحانه وتعالى " وأتموا الحج والعمرة لله " أى أنهما خالصتان لله سبحانه وتعالى وتتمثل فيها جميع الأركان فمنذ بدايته يحرم الحـج وهـو بذلك يعلن تجرده الخالص من كل مظاهر الدنيا ، ويلبس ملابـس وكأنها الثياب التى توضع عليه يوم ولادته ويـوم وفاتـه، وفيـه الصلاة ، بل الصلاة فيه أفضل من أى صلاة أخرى فهو حين يبدأ الصلاة يبدؤها بتكبيرة الإحرام كما أشرنا وحينما يبدأ الحج يبـدأ بالإحرام (انظر تلاقى الرموز) ثم إنه يصلى فى المسجد الحرام

خير المساجد على الأرض ، ويصلى فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذى يليه فى المكانة ، ويورد مسلم فى صحيحة عدة أحاديث تبين فضل الصلاة فى مسجدى الحج المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم (صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواء إلا المسجد الحرام) [1]، وفى رواية ثانية (خير) بدلا من أفضل وهذا يعنى أن الصلاة فيهما أفضل من الصلاة فى أى مكان أخر ، وهذا شرف يناله الحاج ، وفيه زكاة ، بل زكاة أوسع ، فإذا كانت الزكاة طهارة ومال يدفعه المرء فإنه فى الحج يضحى بالمال ، ويتطهر من كل شئ ، بل ويضحى بأهله وماله ودنياه كلها ليعيش فى رحاب الله سبحانه وتعالى ، وفيه الصوم أيضا كما سنبينه فيما يلى:

فالحج يبدأ بشعيرة تعادل إعلان الإيمان ، فبعد الإحرام الذى يرمز إلى الميلاد الجديد يعلن الطاعة لله ملبيا (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك له ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وهو ما يوازى (لا إله إلا الله) ففيها إعلان الطاعة وإعلان الإيمان الخالص، وفيها الاعتراف بفضل الله ونعمته عليه وهنا نقطة التقاء أيضا مع الصلاة (الله أكبر) ، إنها عبارات موجزة لكن معناها يتسع لتمام العقيدة .

---

(١) صحيح مسلم /٥٨٠ .

ويطبق بعد ذلك ما أعلنه فيأخذ أهبته للرحلة المباركة ، ويركب راحلته التى تنقله من هذه الدنيا (وهى فى الحج الدار الذى يسكن فيها) وينتقل إلى تلك البقعة المباركة حيث بيت الله الحرام ، أول بيت وضع للناس " إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين " [1] .

وتتتابع مناسك الرحلة واحدة تلو الأخرى مؤكدة معانى الإيمان بكل معنى الكلمة ، فعندما يصل إلى بيت الله يؤدى تحيته، وهى الطواف حوله وهو سبعة أشواط ، وربما كان تحديدها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة رمزا لهذا الرقم الذى هو عدد السماوات والأرض ، وعدد الأيام التى خلقها الله فيها حتى استوى على العرش ، أى أنه إعلان التصديق بالله وبقدرته ، تصديق الله فى أخباره عن هذا الرقم ، وتصديق الله فى قدرته على الخلق ، وربما غير ذلك لكنه اجتهاد منا .

وفى كل منسك من مناسك الحج رمز للإيمان بالله ، السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة وهو الحج كله إنه مشهد دنيوى يجسد مشهدا أخرويا وهو يوم الحشر والبعث والحساب إنه اليوم الآخر ، ولذلك قال تعالى فيه إنه (يوم الحج الأكبر) لأن الناس فيه متساوون واقفون بين يدى الله داعين الله

---

(1) آل عمران /٩٦ .

بالمغفرة ، ووقوفهم يشبه وقفة الناس يوم الحشر حيث يكون كل فرد طامع فى رحمة الله ، وفى غفرانه يتمنى أن يتخلص من ذنوبه ، وأن يعود مرة ثانية ليعمل الحسنات ولا يخطئ فى حق الله وفى حق نفسه ، أنه مشهد عظيم ولا شك .

ثم يفيضون من حيث أفاض الناس قبلا ، ويذكرون الله عند المشعر الحرام ، وبعد ذلك ينحرون الهدى فى يوم النحر ويحلقون رمزا إلى يوم ولادتهم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم سابعهم (السبوع ومرة أخرى رقم سبعة) فقد استن الرسول حلاقة الشعر ووزنه بمقدار من ذهب للأطفال الذكور وفضة للنساء ، ويتصدق بهما على الفقراء ، إنه مظهر من مظاهر الخضوع والذل والصغر أمام الله ، ثم يعلنون تمام ذلك كله برمى الشيطان بالجمرات ورجمة كرمز للصفاء الخالص لله وطرد الشيطان من قلوبهم .

أما عن الصلاة وتوافقها مع الحج ، أو تماثلها فيه فقائم ، فالمسلم حينما يحرم يصلى ركعتين سنة الإحرام ، وهو إعلان للدخول فى لقاء مع الله ، وكما أن المصلى يترك الدنيا كلها ليمتثل بين يدى الله فإنه فى الحج يعلن ترك الدنيا وتلبية نداء الله سبحانه وتعالى ، كما وصف الله سبحانه وتعالى الحجاج بأوصاف المصلين حين قال : " وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت إلا تشرك بى

شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود " [1] ، ومنها استنتج العلماء كيفية الصلاة من قيام وركوع وسجود ، كما أن الاثنين لا يصحان إلا بالطهارة ، وكلاهما يبدأ بهما ، وكلاهما يتضمن حركات تؤدى القيام والركوع والسجود فى الصلاة ، والطواف والسعى فى الحج ، هذا بالإضافة إلى أن كلا منهمَا يؤدى فى المسجد ، فالصلاة تؤدى فى المسجد ، ومناسك الحج أيضا فى المسجد ، حتى عرفة تؤدى فيه الصلاة جامعة مثل الجمعة ، وإن كانت مختلفة بعض الشئ .

أما عن الزكاة وتلاقيها مع الحج أو اشتمال الحج عليها فإنه واضح أيضا ، إن الإنسان يضحى بالمال من أجل الله مثلما يدفع الزكاة أيضا من أجل الله ، إن الإنسان يضحى بالمال من أجل الله مثلما يدفع الزكاة أيضا من أجل الله ، والهدف منهما واضح التطهير ، فهو يدفع الصدقة ليتطهر " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها " ، وهو هنا يدفع المال ليتطهر ، إنه يذهب إلى الله ليتخلص من أدران الدنيا ، ويطهر نفسه مما علق بها من حب الدنيا وشهواتها ، بل إنه هنا يترك ماله كله وأولاده الذين هم زينة الحياة الدنيا " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " ومع هذا يتركهم من أجل الله وحده وفى الحج صوم ، فالمسلم يصوم

---

(1) الحج / ٢٧ .

عن متع الدنيا حلالا وحراما " الحج أشهر معلومات فمن فـرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج " [1] وكما أن الصوم امتناع عن الشهوات ، فإن الحج أيضا امتناع عن كل شئ حتى الجدال ، والرفث رمز إلى الحلال ، والفسوق رمز للحرام ، والجدال رمز للكلام الممنوع والذى يفسد الصوم ، فإذا أضفنا إلى ذاك أن الصوم يستخدم وسيلة للتحكم فى الغرائز كما قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الزواج (ومن لـم يسـتطع فعليـه بالصوم فإنه له وجاء) أى وقاية من الوقوع فريسة الشيطان الذى غالبا ما تكون وسيلته الغرائز فإننا نفهم معنى تلاقيهما .

وإذا كان الجماع المباح محظورا فى الحج فـإن الفسـوق أولى بأن يحظر ، وهو يشمل كل الموبقات من الزنـا والسـرقة وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فمادام الإنسان قد قصد الله سبحانه وتعالى فلابد أن يتخلى عن أى شئ إلا ما يقيته ويمكنـه من أداء واجباته ، وكذلك الجدال وفى هذا يقول السـيوطى فـى الجلالين ((إن الجدال هو الخصام)) [2] ولما كان الخصام منهيا عنه فى الأوقات العادية ، فإنه فى أيام الحج يكون أكثر حرمـة ، لأن الناس القادمين من كل حدب وصوب يلتقون أمام الله ليشهدوا

---

(1) البقرة / ١٩٧ .

(2) تفسير الجلالين ط الحلبى / ٢٧ .

منافع دنيوية وأخروية لهم لا يجب عليه الاختصـــام ، إن الله قـــد جمعهم فى أرضه الطيبة ليؤلف بين قلوبهم ويتعارفوا فيما بينهم ، فالجدال يفسد ذلك كله ، وإذا كانوا قد جاءوا مخلصين النية لله فإن الجدال يتناقض مع هذا الهدف السامى ، ولذلك خـــتم الله الآيـــة الكريمة بقوله تعالى : " وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب " وهو توجيه له مغزاه ، إن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لن يستجيب له إلا أولو الألباب فهم دائما المعنيون بأمور الله .

ونلاحظ أن هذه أعلى درجات الصوم وهو الخالى أيضـــا من الرفث والفسوق والكلام السئ وقد جعل الله الصوم أيضا فـــى الحج فداء للحلق إذا كان به أذى من رأسه ، وهذا أيضـــا يؤكـــد التلاقى بينهما .

ولما كانت للحج هذه المكانة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حقه (من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) [1] ، وهو حديث له مغزاه الكبير ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم يبشر المؤمن الذى يـــؤدى مناســـك الحـــج بالتطهر من ذنوبه ويصبح على الفطرة السليمة كيوم ولدته أمه ، وهى فرصة عظيمة لكى يعيد الإنسان بناء نفسه وبناء حياته على هدى من تقوى الله سبحانه وتعالى وطاعته ، وهذا ما يفهمه أولوا

([1]) صحيح البخارى مج١ /١٩١ .

الألباب أما الضعفاء فقد يستخدمونه استخداما سيئا بمعنى أنهم يؤدونه لتغفر لهم ذنوبهم ، ويعودون بعد الحج إليها من جديد، وما داموا يملكون الوسيلة والقدرة فإنهم يكررون ، إنهم يتصورون أنهم يشترون مغفرة الله لهم بما يملكون من مال ، ولكن هذا مفهوم خاطئ ، لأن المؤمن الصالح تكفيه حجة واحدة ليتعلم منها ويبدأ حياته من جديد فى ثوب من الإيمان بالله ، يحرص قدر الإمكان على ألا يعود إلى ذنوبه مرة أخرى .

بعد هذا العرض المفصل نستطيع أن نؤكد على تكامل أركان الدين الإسلامى التى بنى عليها الإسلام ، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : ((بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا)) [1] ، لأنه جمع فأوعى جمع المبادئ التى تتكامل وتتحد مع بعضها ، وتتفاعل لتؤدى فى النهاية إلى خلق مسلم بل مؤمن كامل الإيمان إنها تبدأ بالله ، وتنتهى إلى الله ، ولا يمكن أن نتصور منهجا متكاملا بمثل هذا الإحكام الذى بنى عليه الإسلام .

ونظرا لمعرفة الله سبحانه وتعالى بعباده وقدرتهم فإنه جعل بعض هذه العبادات تبعا لقدرة المسلم على أدائها ، وهذا

([1]) صحيح مسلم ص٢٦ .

دليل على رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ، فالزكاة على من يملك نصابا وإن كان هذا لا يعفيه من التصدق ، والصوم على القادر عليه ، وإن كان إتيانه خيرا من تركه ، أى تبقى محاولة المسلم المجاهدة ، وليس معنى هذا أن الله يعطى الرخصة ثم يسحبها فحاشى لله أن يكون كذلك ، لكنه قال : " وأن تصوموا خير لكم إن كنت تعلمون " حتى يسد الباب أمام ضعاف الإيمان الذين يبحثون عن الثغرات والتيسيرات قبل أن يبحثوا عن أداء الطاعات ، فأداؤها أولى ، والرخصة تجوز لهم إن كانوا غير قادرين حقا ، والحج للمستطيع أيضا وحدود الاستطاعة واسعة ، كل ذلك يثبت أن الدين يسر كما وصفه الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، ومن علامات يسره أنه لم يكلف أحدا بالعبادة على مشقة وكراهة ، لأن الله يحب أن يعبد بحب وبرضا لا بإجبار وكراهية وهو يقول : " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها " وأكد على هذا المعنى مرة ثانية " لا نكلف نفسا إلا وسعها " وكرر ذلك ليؤكد أمرين :

أولا : أنه رحيم بعباده عليم بهم ، فلم يكلفهم مالا يستطيعون إتيانه من الأفعال .

وثانيا : وهو ناتج من الأول فما دام لم يكلف عباده إلا بما يقدرون عليه، فإنه سيحاسبهم على هذا لأنهم لا تبقى لهم حجة ،

فقد جاء التكليف مناسبا لإمكاناتهم ، وخيـــر مثـــال لـــذلك تلـــك المراجعة فى أمر الصلاة حتى صارت خمســـا بعـــد أن كانـــت خمسين ، كل ذلك (لئلا يكون للناس على الله حجة) فقد خلقهـــم ورزقهم ، ومنحهم كل متع الحياة ، وكلفهم بما يمكنهم أداءه ، إنه الله الذى نؤمن به وندين له بكل النعم : إنه الله مرســـل الرســـل ليهدينا إلى الطريق القويم ، إنه الله الذى أنزل على عبده ونبيـــه محمد صلى الله عليه وسلم كتابا هاديا للناس جميعا ، ودينا شاملا، وصدق الله العظيم فى وصفه " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " فبهذا المنهج المتكامل تتحقق الرحمـــة للنـــاس ولكـــل الخلائـــق والعوالم.

الفصل الثالث

المعـــــاملات



إذا كانت العبادة تمثل الجانب التطبيقى للعقيدة خاصـــة فـــى جانبه المرتبط أكثر بالله ولذلك جاءت معه فى بناء واحــد ، فــإن جانبا تطبيقيا أخر يرتبط أشد الارتباط بالجانبين ، النظرى (العقيدة) وبالجانب التطبيقى الآخر (العبادة) ؛ إذ إنه ثمرتهما ، فمن يصل إلى هذه الدرجة من الإيمان عقيدة وعبادة لابد أن ينطبق هذا على سلوكه ، ويظهر فى معاملاته وسلوكه على الأرض وبهذا السلوك يتميز المؤمن على غيره قولا وفعلا ، إنه يوضح للناس كيف تمثل هذه المبادئ وفهمها وطبقها .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثـل الأعلـى للناس ، والقدوة الحسنة لهم فقد كان نموذجا لتطبيق مبادئ الإيمان فى معاملاته التى ما بعد فيها عن منهج الله لحظة واحدة سواء فى القول أو فى الفعل ، وكما تشير سيرته ، وتروى عنه الروايـــات فإنه كان نموذجا مجسدا لهذا التطبيق العملى لمبادئ الدعوة وقــد شرب منه الصحابة الأوائل هذا المنهج وطبقوه مع اختلاف فـــى الدرجة ، وهذا أمر طبيعى لأنه صلى الله عليه وسلم النبى وهــم أتباع بشر عاديون ، صحيح أنه بشر ولكنه يوحى إليه ، ولأخلاقه هذه وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله " وإنك لعلى خلق عظيم[1].

([1]) القلم / ٤ .

وبالرغم من أنه اتصف بهذا الخلق قبل البعثة ، كما تؤكد كل الشواهد والسير ، فإن البعثة زادته خلقا على خلق من المتابعة المستمرة لكل أفعاله وأقواله كما يقول هو صلى الله عليه وسلم ((أدبنى ربى فأحسن تأديبى)) ، وهذا ما يتضح أيضا فى كثير من مواقف القرآن التى تلاحقه بالتأديب الإلهى وبالتعاليم الإلهية والأمثلة كثيرة على ذلك نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر موقفه حيث أقسم أن ينتقم له بسبعين رجلا من المشركين فأنزل الله قرآنا هداية له وإرشادا إلى الطريق الصحيح فى أخر سورة النحل ((وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون)) [1] واختار له الله بهذا الأفضل فأمره بالصبر ، بعدما بين له طريق العدل فى العقاب ، وأباحه له، إلا أنه حدد ما يتمشى مع صورته كنبى مشهود له من قبل الله بالخلق العظيم ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خير بين أمرين يختار أيسرهما ، وهذا ما تعلمه من هذا الدرس الإلهى المفيد له كقدوة ولنا كتابعين له نتعلم منه ونسترشده وحينما حرم على نفسه بعض الطعام مرضاة لزوجاته لاحقه القرآن أيضا

([1]) النحل /١٣٦/١٣٧ .

بالإرشاد والتوجيه " يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولكم وهو العليم الحكيم " [1] ، فقد رأى الله سبحانه وتعالى أن هذا الفعل لا يتفق وطبيعته النبوية فأرشده إلى الطريق بعدما عاتبه ، وأوضح له أنه يستطيع أن يتحلل من اليمين الذى اتخذه على نفسه .

والأمثلة كثيرة فى القرآن الكريم توضح هذا النهج الإلهى العظيم لتبين لنا هذا المنهاج المتكامل بين العقيدة والعبادة والسلوك، ولذلك حين سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم قالت كان خلقه القرآن ، ومرة ثانية قالت : كان قرآنا يمشى على الأرض ، ومعنى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان نموذجا لهذا المنهج الذى طرحه القرآن ، والذى يجب أن يكون طريق كل مسلم مؤمن بالله ، لا تفرقة فيه بين جزئية وأخرى ، لا نقول كما يقول ضعفاء الإيمان، نحن نؤمن بالله ولكننا لا نستطيع أن نصلى ، أو يقولون نحن نؤمن وحينما يفعلون لا يلتزمون بهذا القول ، وهذا الموقف الواضح الرابط بين القول والفعل ، يجب أن يكون صفة المؤمن

---

(1) التحريم / ١ ، ٢ .

الحق يقول تعالى : " يا أيها الذين أمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون " [1] ، إنـــه يريـــد مـــن المؤمن أن يكون فعله مطابقا لقوله ، كما يحب أن يكـــون قولـــه أساسا صحيحا لفعله ، ومطابقا لمبادئه التى يؤمن بها .

ولا يتضح هذا إلا فى جانب المعاملات التى هى مقيـــاس حقيقى لرسوخ العقيدة فى نفس صاحبها ، وانطباعها فى سلوكه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين المعاملة ، وقـــد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فى مواضع كثيرة إذا نحـــن أخـــذنا التفصيل فيها نحتاج إلى مجلدات ، كما اشتملت الســـنة النبويـــة المطهرة على كثير من هذه التوجيهات النبوية فـــى المعـــاملات والتى تتفق ومنهج القرآن الكريم فى هذا ولا عجب فكلاهما مـــن نبع واحد ، فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشى على الأرض ، وإذا كان أيضا كما وصفه القرآن لا ينطق عن الهوى " إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى " [2] ، فإن ذلك يوضح هذا المعنى الذى أشرنا إليه من توافق الاثنين ، وتكاملهما تكاملا يوازى تكامل العقيدة والعبادة والمعاملات .

([1]) الصف / ٢ ، ٣ .

([2]) النجم / ٤ ، ٥ .

ولذلك جاءت التوجيهات الإلهية فى المعاملات بعد رسوخ العقيدة فى نفوس أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومتوافقة مع تواصل العبادات فى تشريعها ، وجاءت تالية حتى تكون الأرض مهيأة لتطبيقها بعد فهمها فى ضوء العقيدة الراسخة ، ومن ثم ظهر الحلال والحرام ، وانتهى المسلمون عما حرم الله ، وأخذوا ما أحله الله لهم فى رضاء كامل وقبول تام .

وقد اخترنا نماذج من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، توضح هذا المنهج المتكامل والصحيح سواء بالطريق المباشر أو الطريق غير المباشر ، وقد وجدنا منها حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة حيث جمع بطريقة غير مباشرة صفات أهل الجنة والذين اكتسبوا هذه الصفات من تمثلهم لمنهج الله سبحانه وتعالى ، فرسم لنا الطريق بصورة غير مباشرة ، إذا إننا حينما نعرف أن هذه الصفات هى معايير لمن يستحقون رضاء الله ، والمعبر عنه بالظل ، نجده توجيها نبويا متمثلا لكل معانى العقيدة والعبادة فى الإسلام فهم : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله فى خلاء ففاضت عيناه (من خشية الله بعد إيقانه من عظمته وقدرته) ورجل مرتبط بالمسجد ورجلان تحابا فى الله ، ورجل منعه الإيمان من ارتكاب افظع الجرائم (الزنا) ،

ورجل يتصدق فى سبيل الله فى خفاء ، وكلها معانى يتمثل فيهـــا صدق العقيدة والإيمان مع انعكاس هذا الصدق فى سلوكه الدنيوى فيعطى صورة طيبة للإسلام فيكافئه الله أعظم مكافأة .

والمثال الثانى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة التى ييسرها الرسول ، وفى تيسيرها يطرح هذا النموذج للسلوك والمعاملات التى تطبق مبادئ الدين الإسلامى الحنيـــف ، والمثال الثالث يطرح نموذجا للالتزام ، فـــإذا كـــان لا مندوحـــة للإنسان من الجلوس فى الطريق فلابد من المحافظة على مبـــادئ الدين ، أى توازن هذا بين متطلبات الإنسان ، ومتطلبات الآخرين والمثال الرابع نهى عن بعض الأخلاق التى تسود عالم المسلمين اليوم ، وهى إن كانت بسيطة فى نظر كثير مـــن النـــاس إلا أن خطورتها شديدة سواء على خلق المسلم الفـــرد ، أو علـــى روح الترابط بين المسلمين ، والتى من أجلها جـــاءت هـــذه الأخـــلاق والمبادئ الإسلامية فى القرآن والســـنة لتحقـــق هـــذا المجتمـــع الإسلامى النموذجى الذى يقوم أساســـا علـــى قولـــه تعـــالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا وكنت علـــى

شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياتــه لعلكــم تهتدون " [1] .

أما المثال الخامس والأخير فهو حض على خلــق بــدأنا نفتقده وسط هذا الصراع المادى الشديد الذى نعيشه اليوم ، والذى أخذ يفقدنا كثيرا من الأخلاق الإسلامية التــى تشــربناها ســلوكا اجتماعيا فى أوقات مضت ، إنه خلق الكرم الذى يدفع إلى إكرام (الضيف) وهو مثال واقعى ، لا يغالى فى المثالية المفرطــة ، ولكنه يحقق التوازن بين ضرورة إكرام الضيف وبين مراعاة هذا الضيف لظروف مضيفه ، وبهذا تتضح الصورة فى المنهج بــين النظرية والتطبيق .

([1]) آل عمران : ١٠٣ .

١- سبعة يظلهم الله بظله

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشابَ نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله فى خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق فى المسجد ، ورجلان تحابا فى الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال : إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه﴾ [١] .

تشمل هذه العناصر المتعددة فى الحديث وحدة واحدة من حيث السبب والنتيجة هو خشية الله ، والنتيجة هى ظل الله فى يوم يجعل الولدان شيبا ، فى يوم لا ظل فيه إلا الذى ينشره الله على عباده المتقين الخاشعين ، وهم سبعة ينقسمون من حيث السلطان راع ورعية ، ومن حيث النوع إلى ذكور وإناث ، ولكنهم جميعا مجتمعون على شئ واحد ، فإنا أخذت الصفة الأولى وجدت كل

---

(١) البخارى ج ٤/ ١٢٢ .

الصفات تابعة لها ، وإذا انتهيت بالأخيرة تجدها نتيجة للست السابقة عليها .

وأول من يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله هو الإمام العادل لأنه يعد خليفة الله فى أرضه ، ومادام المخلوق يتصف بالعدل فلابد أن يتصف الخليفة بالعدل، فالله عدل ، والعدل اسم من أسمائه الحسنى ، وقد وصف الله نفسه فى القرآن بقوله تعالى: " إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون"[١].

والإمام العادل هذا هو المقصود بقوله تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظم به ، إن الله كان سميعا بصيرا"[٢]. ومن هنا وجبت له الطاعة : " يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " [٣]. وهو أيضا المعنى بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن المقسطين عند

([١]) يونس /٤٤ .
([٢]) النساء / ٥٨ .
([٣]) النساء /٥٩ .

الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديــه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم ، وما ولوا) [1] .

وهنا يسير الترتيب : الإمام العادل يحكم بالعدل فيحبه الله ويحبه الناس ، فيستجيب الناس لأمره ، فتكون طاعتــه مقرونـــة بطاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحـــق أنهـــا طاعة ليس مفروضة كما هو مفهوم من الفعل الأمر (أطيعـــوا) الذى بدأت به الآية عند قوله تعالى " يا أيها الذين أمنوا أطيعـــوا الله، وأطيعوا الرسول " ثم عطف أولى الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارهم تابعين له ، ويستمدون منه القـــدوة فـــى السلطة ، وهذه الطاعة المطلوبة مادامت فـــى إطـــار طاعـــة الله والرسول فهى مقبولة ، ومرغوبة ، ولا يمكن أن يخالف الأميـــر مادام يستمد حكمه من طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم .

وولى الأمر إذا سار بما يرضـــى الله ورســـوله اســـتحق الجزاء الذى بشره به الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه سوف يكون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، ويكفيه أنه سوف يستظل بظل الله فى ذاك اليوم العصيب .

([1]) صحيح مسلم ج ٢ / ١٢٤ .

ولن يؤدى الإمام العادل دوره فى الحياة كما يرضاه له ربه وترضاه له الناس ، إلا إذا كان إماماً ورعاً يخاف الله ، ويثمر هذا الخوف عدلا بين الناس ، هو يخشى الله لأنه يحبه ، " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"[1].

أما الثانى الذى يستظل بظل الله يوم القيامة فهو الشاب الذى ينشأ فى عبادة الله ، وقد استحق هذه المكانة لقدرته الفائقة فى كبح جماح شبابه ، ومنعه من أن يؤدى به إلى التهلكة ، فهو هنا إذن يغلب إرادة الله وإرادة الخير على إرادة النفس وإرادة الشر ، ومادام قد انتصر لله فالله ناصره . " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " [2] . ولأنه نشأ هذه النشأة فإن فرصة دخول الشيطان نفسه بعد ذلك ضئيلة جدا ، إذ لو لم يدخلها فى فترة الشباب فمتى يدخلها ؟ ومن هنا جاء التعبير بكلمة (شاب) ولم يقل (طفل) أو (غلام) أو (رجل) أو (شيخ) فى أى مرحلة من مراحل العمر ، لأن أخطر المراحل وأقواها فى العادة هى مرحلة الشباب ، لأنها مرحلة التحول بين الطفولة والصبا من جانب ، والكهولة والشيخوخة من جانب آخر .

---

(١) آل عمران / ٣١ .

(٢) محمد /٧ .

والشاب الناشئ فى عبادة الله يكون بالضرورة خاشعا لله يخشى غضبه ، ويتمنى رضاه ، ويرتبط بالضرورة بالإمام العادل سواء عن طريق تعلقهما بالمسجد ، أو عن طريق التحاب فى الله.

والفرد الثالث الذى يظله الله بظله هو (رجل ذكر الله فى خلاء ففاضت عيناه) ولعل سائلا يسأل لماذا قال (ذكر الله فى خلاء) ؟ حتى يكون ذكره لله صادقا ، ليس معه أحد يتظاهر أمامه بالتقوى؛ لأنها – أى التقوى – متأصلة فى قلبه والخلاء يعطيه فرصة التأمل والتفكير فى بديع صنع الله ، فإذا أدرك عظمة الله سبحانه وتعالى فاضت عيناه من خشية الله ، ولذلك حرم الله النار على هذه العين التى تبكى من خشية الله وبالتالى حرمها على جسده أيضا لأنه بهذه الخشية دخل فى زمرة المؤمنين "الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون"(١) .

الرجل الرابع الداخل فى ظل الله هو (رجل قلبه معلق بالمسجد) أى أنه لا يترك فريضة إلا ويؤديها فى وقتها ، ولا يعنى ذلك أنه قائم بالمسجد ليل نهار ، فتعبير الرسول صلى الله عليه وسلم دقيق ، بقوله : (قلبه معلق بالمسجد) أى أنه يؤدى

(١)الأنفال /٢ .

عمله بإتقان ، ويمكن أن يفسر هذا التعبير قولــه تعــالى : " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " [1]. وهنا تتضح الرؤيــة ، فالرجل دائما يذكر المسجد ، ويذكر لحظة قيامه فيــه أمــام الله ، فيرتدع عن فعل أى شئ يغضب الله ، مهمــا كانــت إغــراءات الشيطان له ، أظن أن هذا لا يحدث إلا من وازع واحد هو خشية الله سبحانه وتعالى ، فالصلاة تطهر قلب الرجل ، وتجعله دائمــا متلهفا للقاء الله ، والمتلهف للقاء من يحب يمتنع عن فعل أى شئ يغضب محبوبه ومعبوده ، وأى محبوب أعظــم مــن الله ، وأى معبود أجل وأعظم منه ؟ حاشى لله أن يكون له نــد وشــريك ، سبحانه هو الواحد القهار .

وجاءت المرتبة الخامسة فى الحديث لرجلين تحابا فى الله، واستخدم لفظ رجل فى الحديث لا يعنى أنه موجه للرجــال دون النساء فقط ، بل هو موجه للمسلمين جميعا رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ولكن طبيعة اللغة العربية تميل غالبــا إلــى صــف المذكر، فإذا كان هناك رجل واحد وســط عشــرة مــن النســاء خوطبوا جميعا بلغة المذكر ، كما أن هناك دليلا أخر ، وهــو أن الحديث عن واحد من السبعة جاء عن رجلين تحابا فى الله ، ومن

(١) العنكبوت /٤٥ .

ثم فالمقصود برجل هنا هو شخص ما سواء كان هـذا الشـخص ذكرا أم أنثى .

والرجلان المتحابان فى الله يظلهم الله ، لأنهمـا يعـدان عنصرين طيبين فى هذه الدنيا التى يقل فيها الحب ويكثـر فيهـا الطمع والحقد . وعندما يتحاب اثنان فى الله فإنهما لا يبغيان مـن بعضهما رجاء ماديا ولا دنيويا ، ذلـك الـذى يهـدم العلاقـات الإنسانية بسرعة . بل يكون التحاب بينهما صافيا نقيا ، ويكـون دائما فى رعاية الله ، لأنه حب فى الله يجتمعان علـى عبادتـه، ويدعوان لرفع كلمته ، ومن ثم يحبهما الله وينشر عليهما رحمته .

أما الرجل السادس فهو (رجل دعته امرأة ذات منصـب وجمال إلى نفسها قال : إنى أخاف الله) وهنا التفاتة إلى عظمـة التعبير فى وصف المرأة بالمنصب والجمال ، إنه إغراء نفسـى وتسلط قهرى ، فالجمال يغرى الناظر إليه ، ويدفعه إلى التمتع به ولو لم يفلح الجمال فى إغراء صاحبه ، فإن السلطان يقهر هـذه الإرادة التى وقفت فى سبيل التقاء الرغبات ، ولأن المـرأة هـى الداعية فقد سبق السلطان (المنصب) على الجمال ، فهذا يوحى بالرغبة عندها ، والرغبة دافع خطير يمكن أن يؤدى إلى القتل أو السجن . وهنا نذكر قصة يوسف عليه السلام الذى دعته امـرأة

ذات منصب وجمال ، هى امرأة العزيز ، فلما رأى برهان ربه، خاف الله ، وكان نصيبه السجن، ومع ذلك قبل يوسف ورضى أن يسجن بدلا من أن يغضب الله سبحانه وتعالى .

والرادع فى هذه الحالة هى خشية الله التى تشكل سدا منيعا بين الإنسان وبين المحرمات . وفى هذه الحالـــة خاصـــة ، لأن الإنسان فيها لا يخشى عقابا دنيويا . فالتى تدعوه إلى هذا الفعـــل ذات منصب ، فلن يفتضح أمره ولن يعرف الناس شيئا عن هـــذا ومن ثم تنتفى خشية الناس وتبقى خشية الله أمامه ، وما أعظمهـــا رادع للإنسان عن فعل ما يغضب الله .

أما الظليل السابع فهو (الرجل الـــذى يتصـــدق بصـــدقة فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه) ومن الطبيعـــى أن الشمال لا تعلم اليمين ، ولكن المجاز يعطى المعنى قوة وجمالا ، فالمبالغة فى السرية تؤكد المعنى العام الذى ينتظم الحديث ، وهو فعل الشئ من أجل الله وحده سبحانه وتعالى ، وليس للنـــاس أى دور فى ذلك . ومن ثم فهو يحرص كل الحرص علـــى الخفـــاء، وهو فى كل هذا يسعى لإرضاء الله وحده ، ويدخل فـــى زمـــرة الخاشين لله الخاشعين له .

وفكرة الخشية من الله هى التى جمعت هؤلاء الناس فى مكان واحد ليظلهم يوم القيامة، لأن كلا منهم كان حريصا على إرضاء الله وحده ، وتكاد تجتمع هذه الصفات فى شخص أى منهم، فالشاب الناشئ فى عبادة الله يمكن أن يصبح فى يوم من الأيام إماما عادلا، ويمكن أن يكون هذا الشاب هو الذى دعته امرأة ذات منصب وجمال ، لأن الشباب هم أكثر الناس تعرضا لمثل هذه المواقف .

فالمهم فى كل هذا هو الرضا الذى يسبغه الله على عباده ، حيث يمارس المسلم حياته دون خوف أو فزع ، والخشية شئ غير الخوف ، الخشية نابعة من الحرص على إرضاء الله، أما الخوف فالقهر والظلم وراءه دائما ، والله ليس بظلام للعباد ، والقرآن يصور هؤلاء المتقين بقوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) [1].

---

(1) ألبينة /٨ .

٢ - كل معروف صدقـــة

عن أبى موسى الأشعرى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

﴿على كل مسلم صدقة ، قالوا : فإن لـــم يجــد ، قـــال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا فإن لم يستطع أو لـــم يفعل قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا: فإن لـــم يفعـــل ، قال:

فيمسك عن الشر فإنه له صدقة ﴾ [١] .

يحرص الرسول الكريم صلى الله عليه وســـلم أن يربـــى فـــى المسلمين روح العطاء حتى يمكنهم من تجاوز ذواتهم عند التفكير فى أمور دنياهم أو النظر إلى ذواتهم من خلال الجماعـــة التـــى يعيشون فيها فتنشأ بينهم الروابط الكفيلة بتكوين مجتمـــع تســـوده المحبة ، ويعمه الإخاء ، وتتفشى فيه روح المساواة تلك الصفات الكفيلة بتكوين المجتمع القوى المثالى المرتقب لدى البشرية كلها.

والصدقة من مادة (صدق) ومعانيها المعجميـــة تعطـــى دلالات وإيحاءات مختلفة ومتعددة ولكنها كلها تندرج تحت بـــاب

---

(١) البخارى ج ٤ / ١٣ .

طهارة النفس فالصدق طهارة للنفس وتبرئة لها من دنس الشيطان، وفيها الصدق وهى الصلب المستوى من الرماح والرجال والكامل من كل شئ إلى غير ذلك من الصدقة بالفتح ، وبضم الدال الصدقة (مهر المرأة) ، ولما كان هذا المعنى هو الشامل لجميع أفرع هذه المادة فإن الله سبحانه وتعالى جعل الصدقة من أسمى الأشياء التى تؤثر فى داخل الإنسان وجعلها مطهرة له – إذ يقول فى القرآن الكريم : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) [١].

ولما كان هذا المعنى الإنسانى العظيم هو الأساس فى دفع الصدقة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل كل الأمور الخيرة صدقات ولم يقصرها على دفع مبلغ من المال ، وحتى فى هذا الجانب من الصدقات وهو صدقات المال فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبله إلا من طيبات المال يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيديه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل) [٢] .

---

(١) التوبة / ١٠٣ .

(٢) البخارى / ج ٤ / ١٧٧ .

كما أن الله سبحانه وتعالى جعل إخـــراج هـــذه الصـــدقة مشروطا بألا يتبعه من ولا أذى حتى لا يفسد المعنى الطيب الذى هو أصل فى الصدقة فقال تعالى : " قول معروف ومغفرة خيـــر من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ، يا أيها الــذين أمنـــوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء النـــاس ولا يؤمن بالله واليوم الأخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصـــابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهـــدى القوم الكافرين" [1] ومن يتأمل الآيتين يجد إرشادا واضحا إلى فهم الحديث الذى نحن بصدده فى مجال القول المعروف وهـــو أحـــد أبواب الصدقات فإذا كنت لا تستطيع دفع صدقة المال فلا أقل من أن تقول كلمة طيبة تكتب لك بها صدقة، وقد ضـــرب الله مـــثلا لأولئك الذين يمنحون الناس صدقات ثم يتبعونها بالمن والأذى أى أن يظلوا يعيرونهم بها ويطلبون منهم الخضوع لهم كمثل حجـــر صلب أملس عليه تراب فأصابه مطر شديد فأزال ما عليـــه مـــن تراب وتركه صلدا أى ..كأن لم يكن عليه شئ وهـــذا يعنـــى أن مانح الصدقة ومتبعها بالمن ليس له من صدقته أى فائدة .

---

(١) البقرة / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ونأتى إلى الحديث فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصدقة واجبة على كل مسلم ولا حجة لأحد بعد هذا الحديث فـــى عدم التصدق، وقد بين صلى الله عليه وسلم كيفية التصدق فقــال عندما سأله أصحابه (فإن لم يجد) أى إن لم يجــد المـــال الـــذى يتصدق به فماذا يفعل ؟ قال فيعمل بيده فينفع نفســـه ويتصـــدق وأولى الناس بالتصدق عليهم نفسك، والتصـــدق عليهـــا يكـــون بتعويدها على العمل وعدم الكسل، ولا تركن إلى الحاجة فتكـــون فى المكان الأسفل فاليد العليا خير من اليد السفلى، كما أن الرجل إذا أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم القـــدوة الحســـنة عندما جاء سائل يسأله فأرشده إلـــى العمـــل وأمـــره أن يـــذهب ويحتطب ويعود إليه وكانت النتيجة مثمرة، ويصبح الرجل بعد أن يسأل الناس الحاجة يصبح هو متصدقا وكما قال له الرسول (هذا أفضل من أن تجئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة) .

وهنا ينشأ تساؤل، فإذا لم يتمكن الرجل – بالرغم من عمله – أن يتصدق فماذا يفعل ؟ أى إن لم تكن الصدقة بالمال فبأى شئ يتصدق الإنسان؟ هنا يجب التصدق ببدنه وعافيته فجسمه أيضـــا وقوته عليه صدقة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأله

أصحابه فإن لم يستطيع قال فيعين ذا الحاجة الملهـوف، وإعانـة الملهوفين تقرب الناس إلى بعضهم، وتخلق فى الأمة روح التعاون المثمر ويحس الإنسان أنه يعيش فى أرض الإنسان ولـيس فـى غابة كلها وحوش يفكر كل واحد فى نفسه وماله ، يأكـل القـوى الضعيف ويهمل الكبير الصغير، وينعم أناس ويمـوت آخـرون، ولكن الأمة التى يريدها رسولنا أمة متراحمة أمة متعاطفة يقـول صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كمثـل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سـائر الجسـد بالسـهر والحمى) [1].

وماذا عن الرجل الهزيل الجسم الذى لا يقوى على دفـع الصدقة بالمال أو يقدر بجسمه على إعانة الملهوف قال الرسـول صلى الله عليه وسلم فيأمر بالخير أو قال بـالمعروف (والأمـر بالمعروف صدقة) لأن كل معروف صدقة فمن يـأمر بالصـدقة يكون أداها، والأمر بالمعروف ركيـزة أساسـية فـى المجتمـع الإسلامى وعلامة على الإيمان بالله والانتمـاء لهـذا المجتمـع، والأمر بالمعروف يشمل الدعوى إلى عبادة الله والدعوى إلى سلك طريق الحق ويشمل كذلك النصح للناس فمن عرف طريقا خيـرا

---

(1) البخارى ج١/١٠.

وجب على إرشاد الناس إليه ومنها كذلك إرشاد أولى الأمر إلى الطريق الصحيح إذا رآهم يسلكون طريقا غيره وما نجح المسلمون الأوائل فى تكوين دولتهم القوية إلا لأنهم إذا كان فيهم المخطئ نصحوه حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه فسلك الناس الطريق الصحيح الذى أوصلهم إلى ما وصلوه من مجد .

ويستوى مع الأمر بالمعروف النهى عن المنكر فإن النهى عن المنكر أمر بالمعروف فى حد ذاته الابتعاد عن المنكر طاعة والطاعة معروف ودائما جاء النهى عن المنكر مقرونا بالأمر بالمعروف فى القرآن بل كان مقياسا لخيرية امتنا على سائر الأمم، يقول تعالى: " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " [1] فقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله وذلك لأنهما مرتبطان بالإيمان وهما نتيجة حتمية له وهو يريد أن يبين هذا المعنى ويبين أنهما أساسان من أسس الإيمان فقدمهما عليه ليس لأفضليتهما عليه ولكن لأنهما نتيجة حتمية له .

فإذا لم يستطع العبد المسلم أن ينهى الناس عن الشر فإنه يكفيه هو أن يمسك عن الشر فإن منع الضر فإن منع الضرر عن

---

(١) آل عمران /١١٠ .

الناس صدقة، والقاعدة الشرعية تقول لا ضرر ولا ضرار فكما أنك تحب ألا يضرك أحد فإنه يجب عليك ألا تضر الآخرين وإمساك المسلم عن الشر راحة للآخرين ودفع الضرر عنهم ، أمر محبب .

وقد قصد الرسول صلى الله عليه وسلم بطرق هذه الأبواب جميعا أن يفتحها أمام المسلمين وأن يعطيهم الفرصة الطيبة لتكوين مجتمعهم القوى الذى رسم لهم معالمه القائمة على الحب والعدل والإخاء والقوة فى الله، مدركا بذلك كل التناقضات البشرية من بخل للنفس بالمال وقد فتح أمامها التصدق بالجسد ومدركا نزعتها الحيوانية إلى الشر فجعل الإمساك عنه صدقة وهو فى كل هذا وذاك يفتح الباب لكل هذه التناقضات أن تتحقق ولكن يوجهها لأبواب الخير بدلا من أن تسير فى طريق الهلاك حرصا منه على الفرد ذاته وعلى الجماعة بصفة عامة .

وعلينا أن نربط ذلك بما تحدثنا فيه عن ترابط العبادات وتكاملها، وهذه التوجهات النبوية نابعة من المنهج العقدى وأثر العبادات فى تقويم سلوك المؤمن وتدعيم عقيدته وفى الوقت نفسه هى تطبيق له.

٣- حق الطـــــريق

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه إن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

﴿ إياكم والجلوس بالطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنـــا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال إذا أبيتم إلا المجلس فـــأعطوا الطريق حقه، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غـــض البصر وكف الأذى ورد السلام

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴾ [١] .

الأدب النبوى أدب رفيع، يعلم المسلم كيف يحـــافظ علـــى نفسه بالمحافظة على حقوق الآخرين، ففى صون حقوقهم صـــونا له ولكرامته وعرضه، وهو فى ذلك يجعل نصب عينيـــه هـــدفا ساميا ألا وهو المحافظة على روح الجماعة وتماسكها وترابطها، لأنه يدرك أن المجتمع لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا كانت لـــه مبادئ يصونها، ويعمل فى ضوئها .

وها هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتعلم منه كيف نصون أنفسنا، وكيف نحافظ على حقوقنا وحقوق إخواننـــا،

---

(١) البخارى ج٤ / ١٥١ .

وأول ما يلفتنا إليه الحديث هو الجلوس فـــى الطرقـــات، لأنهـــا مضيعة للوقت، مفسدة للخلق ، معوقة للإنتاج، لا طائل من ورائها إلا الضياع والخسران، ولذلك يحذرنا منها الحديث ويقول: (إياكم والجلوس فى الطرقات) وقد تركها الرسول صلى الله عليه وســلم عامة لينبهنا إلى خطورتها، وأضرارها الكثيرة دون تحديد لبعض الأشياء فتكون حجة لفعل الأشياء الأخرى التى لم يذكرها.

أنها الأمكنة التى تضيع وقت شبابنا وتهلكه فيما لا نتيجـــة من ورائه إلا الضياع، وليس لهم عذر فى ذلك فالأعمال مفتوحة، ومناكب الأرض والرزق مفتوحة أيضا لمن يرغب فـــى الســـعى والحصول على الرزق، وإذا لم يعمل الشاب فى هذه السن ويجتهد فى سبيل تحصيل رزقه ومتطلباته فمتى يعمل؟ وهو الآن قـــادر على العطاء وذهنه متفتح ومؤهل لاكتساب الخبرات التى ستنفعه فى مستقبله، كما أنه فى فترة التطبع التـــى تطبـــع ســـلوكه فـــى المستقبل بطابعها الذى اكتسبته فى هذه السن. والمثل السائر يقول: (من شب على شئ شاب عليه) ، بل ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله (شاب نشأ فـــى عبـــادة الله)، والعمـــل واكتساب الرزق جزء من عبادة الله، ولأنه يدرك أن الشاب الذى

ينشأ على شئ يظل عليه فى كبره فإذا نشأ على العبادة ظل عليها فى الشيب .

ولكن الأمر بالنسبة للصحابة رضوان الله عليهم كان مختلفا، فربما كانت ديارهم ضيقة، وأنهم لم يكونوا يريدون إزعاج أهلهم بما يدور بينهم من مناقشات، ولذلك قالوا لرسول الله : (ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها) ، وهم بذلك أوضحوا السبب فى مجلسهم هذا، ومن هنا كان رد الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم إيجابيا لا سلبيا، فهو يعرف بأنهم صادقون فى قولهم، ومادام الأمر كذلك فلا حرج عليهم أن يجلسوا فى الطرقات ، ولكن هناك حقوقا للطريق يجب أن يلتزم بها كل من تضطره الظروف للجلوس فى الطرقات، كما أن الكلام ليس قاصرا على الجالس فى الطريق، وإنما هو يتسع ليشمل السائر والراكب فى الطريق .

ولكن ما هى هذه الحقوق؟ خمسة حقوق كفلها الإسلام للطريق ، كل منها له نتائجه الطيبة على كل من الفرد والجماعة، فكما أنها رادعة للفرد من اتباع أهوائه وغرائزه، فهى صيانة له ولبيته من أذى الآخرين، وأول هذه الحقوق: غض البصر وهو منع البصر من النظر إلى المحرمات ، وهنا يجب التنبيه على

المعنى الواسع لغض البصر وأقصد أننا يجب أن لا نقف به عند هدفه الجنسي والغرائزي، بل معناه باعتباره محركا لنوازع أخرى داخل النفس البشرية، من جنس وحقد وضغينة وما ينتج عن ذلك كله من دمار للمجتمع وحطام .

ولذلك كان الأمر بغض البصر من الله سبحانه وتعالى فقد قال فى كتابه الكريم: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) [1] إلى آخر الآية التى عددت الأشخاص الذين يجب أن تظهر المرأة عليهم بزينتها".

وكما ورد فى النص القرآنى " ذلك أزكى لهم " وأزكى معناها الأطهر والأنقى وقد صحبها قوله تعالى " إن الله خبير بما يصنعون " ليؤكد على ما يفعله الإنسان بالبصر، وفيه صنيع، والواقع أن غض البصر يمنع كثيرا من المصائب التى تحدث للمجتمع والإنسان العاقل هو الذى يجلس فى الطريق أو يسير فيه غاضا بصره، وقد أعجبنى مقياس ذكره الشيخ الشعراوى وهو انه إذا كان الإسلام قد منعك من النظر إلى الواحدة فقد منع مئات الملايين من النظر إلى زوجتك فأى مكسب حصلت عليه أنت لابد

([1]) النور / ٣٠، ٣١ .

أن يكون الإنسان، إذا اتخذ هذا مقياسا له هـو الـرابح، ودائمـا التجارة مع الله فى العبادات الرابحة ، فالله كريم، والحسنة عنـده بعشر أمثالها ويزيد، والسيئة عنده بمثلها أو يعفـو " مـن جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها"(١).

وقد ورد فى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليـه وسلم أردف الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته وكان الفضل رجلا وضيئا ، فوقف النبى صلى الله عليـه وسـلم للناس يفتيهم وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تسـتفتى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسْـنها، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم ، والفضل ينظر إليها، فـأخف بيده فأخذ بذقن الفضل وجهه عن النظر إليها) (٢) .

وهذه هى مهمة القائد الناجح الذى يريد أن يقود سفينته إلى بر السلام، لكى ينجو كل من أمسك بشراعها، واهتـدى بهـدى ربانها وقائدها، فما بالك إذا كان ربان سفينتنا رسـولنا العظـيم صلى الله عليه وسلم الذى يوحى إليه من عند الله، إذ علمه الله من

---

(١) الأنعام /١٦٠ وقد وردت كثيرا فى القرن الكريم .

(٢) البخارى ج٤/ ٥١.

فوق سبع سموات : " علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى " [1] .

والأمر الثانى هو كف الأذى وهناك صلة تفاعل بين هذا الأمر والسابق عليه فالبصر أذى للناس وغضه كف لهذا الأذى ليس هذا فقط المقصود بهذا الأمر، بل هو منع أى ضرر يقع للمارة أو الجالسين فى هذا الطريق ، وكف الأذى هنا يشمل معنيين : الأول معنى معنوى، والثانى معنى مادى، والمادى يتمثل فى منع أى أذى يقع للناس بالكلام، أو بالنظر إليهم، وكذلك إزاحة المضايقات من قاذورات ومخلفات على جانب الطريق حتى تضايق أناسا آخرين، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ويأتى بعد ذلك المعنى المعنوى وهو إحساس كل مسلم بحرص أخيه المسلم عليه فيبادله شعوره والكل مستفيد من هذا المبدأ بلا شك فمن يكف الأذى عن الناس سيجد فى مقابل ذلك الناس يكفون الأذى عنه، وإذا تألف المسلمون فى مجتمع تسوده كل هذه المزايا فإنه ولا شك مجتمع ناجح، وليس كف الأذى هدفا فى حد ذاته بل الروح التى تنتج من حرص كل مسلم على دفع الأذى عن أخيه .

([1]) النجم /٥، ٦، ٧.

الأمر الثالث الذى يأمرنا به الحديث هو رد السـلام وإذا كان إلقاء السلام سنة فإن رده فرض، وإلقاء السلام سنة أمر بهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحديث (عن عبـد الله بـن عمرو أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم أى الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلـى مـن لـم تعرف) [1] وقد قرن إقراء السلام بالطعام، فكان إفشاء السلام بين الناس يؤدى وظيفة معنوية تعادل وظيفة الطعام للجسد وما فيه من حياة للناس . ولما كانت للسلام هذه المزايا فإن الله سبحانه وتعالى أمر برد السلام حيث قال: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها، إن الله كان على كل شئ حسيبا) [2] وكما تنص الآية فإن رد الآية فرق أنه أصبح فرضا بهذه الآي إلا أنها تطلب رد السلام بأحسن منه، وفى الحديث: (أن الله لما خلق آدم قـال

اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلـوس فاسـتمع مـا يحيونك فأنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام علـيكم ، فقـالوا السلام عليك ورحمة الله) (فزادوا ورحمة الله) . وهذه الإضـافة عظيمة فبدلا من طلب السلام للناس ، والسلام هو الله وهو اسـم

---

(1) البخارى ج٤/٥٢.

(2) النساء/ ٨٦ .

من أسمائه الحسنى، أضاف إليها رحمته، وكلنا محتاجون لرحمته يوم يعرض الناس عليه .

أما الأمر الرابع فهو الأمر بالمعروف، وهو باب واسع ويشمل جميع مناحى الحياة ويشمل الأجزاء المتقدمة من الحديث فغض البصر أمر بالمعروف وكف الأذى أمر بالمعروف وكذلك رد السلام لأنه من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة والسنة الحسنة أمر بالمعروف، والكلمة الطيبة أمر بالمعروف فإذا كان الناس لا مفر لهم من الجلوس فى الطرقات فإن الواجب عليهم أن يأمروا بالمعروف، فيرشدوا الضالين إلى أماكنهم، أو يخاطبوا الناس بالحفاظ على حقوقهم وعلى آداب الطريق، وأبسط شئ يجب عمله من باب الأمر بالمعروف هو أن تجلس فى حالك فى أدب شديد تفعل ما أنت قادم له وما دفعتك الظروف إلى فعله فى هذا المكان والزمان .

والأمر الخامس هو النهى عن المنكر، وهو مرتبط بالجزء الرابع من الحديث فكلاهما قرين الآخر فى كل آية وفى كل حديث وهما كل متصل، فمن يأمر بالمعروف لابد أن ينهى عن المنكر، لأن المعروف نقيض المنكر ومن يدعو الناس إلى المعروف هو داخل دعوته هذه ينهى عن الأشياء المخالفة لهذا المعروف، وهو

بالتأكيد منكر. والمشكل فى الأمر كله أن كثيرا من النـــاس الآن يفعلون العكس، كأن يقفون فى الطريق لمضايقة المارة بأجسامهم وبأصواتهم، أو بلعب الصبيان فى الطريق فيضايقوا المـــارة، أو يخرج صاحب العمل من دكانه ليزاحم الشـــارع بالأشـــياء التـــى يضعها دون مراعاة لحقوق الناس كل هذه الأشياء عكس ما يأمرنا به الحديث، والإلحاح على هذا الحديث دعوى لكل الناس ليراعوا حقوق بعضهم على بعض وفى ذلـــك مـــدعاة للمحبـــة والتـــآلف والتعاون وجلب الخير للناس أجمعين ولن ينفذ الناس هذه الأوامر التى أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانوا مؤمنين بالله حقا خائفين من حسابه مؤدين لعباداته كلها حق الأداء .

٤- الظن أكذب الحديث

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

﴿وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك﴾ [1] .

لا يفتأ الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا مما علمه الله، ويؤدبنا بالأدب الذى أدبه الله، ويزيدنا من النبع الفيــاض الــذى أفاضه الله عليه، لأنه إمام وقدوة يسلك الطريق قبل أن يعلمنا إياه، ويلزم نفسه بالشئ قبل أن يأمرنا نحن به وبذلك يضــرب المثــل الأعلى فى القيادة ولذلك أثمرت قيادتــه دولــة هــزت عــروش القياصرة والأكاسرة وكونت الدولة الإسلامية التى بسطت سلطانها على الشرق والغرب .

أول ما يحذرنا منه الحديث الشــريف الظــن، ويوضــح الرسول السبب فى تحذيره هذا، فيبين أنه أكذب الحديث، والظــن والكذب صفتان ممقوتتان لا يمكن أن يعودوا على الفرد والمجتمع

([1]) البخارى ج ٣ / ١٩ .

إلا بالوبال والدمار، فإذا سيطر الظن على الناس انعـدمت الثقـة بينهم، وضاع الأمن والأمان ، وكثرت الضحايا ولذلك يحذرنا منه القرآن الكريم فيقول: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) [1] وهى دعوى صريحة إلى طرد الظن مـن نفوسنا، مادام الإنسان مؤمنا بالله فعليه أن يـدع أى ظـن ، لأن الإيمان بالله يعلمنا الثقة والطمأنينه، إذ إنه فـى ذاتـه تسـليم لله بألوهيته وثقة فيه وفى رسوله ولما كان الظن ذات أثر سئ فإنـه يتساوى بذلك والكذب الذى يحطم المجتمع وكلاهما يشترك فى فقد الثقة فى النفس، وفى الناس وإذا انعدمت الثقـة تفكـك المجتمـع وصار حطاما، وقد حرص الإسلام، كما يتضح من هذا الحـديث على تحقيق المجتمع المترابط الأمن، حتى لا تنخر فـى عظامـه ديدان الحقد والكراهية وينقلنا نص الحديث بعد ذلك إلـى سـبب ونتيجة وكلاهما منهى عنه ، فالتجسس والتحسس سبب الظن لأن الظن لا ينشأ عند الناس إلا من هذه الخصـلة الذميمـة خصـلة التجسس ، وفى الوقت نفسه فإنه ينشئها ويساعد على نموها فأول الظن تحسس وأخره تجسس والنتيجة الحتمية لهذا كله التبـاغض والحقد ولذلك نهى عنها رسول الله صلى عليه وسـلم فقـال ولا

([1]) الحجرات /١٢ .

تباغضوا كما نهى القرآن الكريم فقال فى الجزء الثانى من الآيــة السابق ذكرها ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا [1] .

وإذا كان التجسس والتباغض يؤديان إلى الفرقة والتباعــد فإن الرسول لا يذكر هذه النتيجة صراحة ، بل يوضحها ، الأمر الذى يعقبها فيقول صلى الله عليه وسلم ، وكونوا عباد الله إخوانا هذا هو الخلق الذى يريده الله لعباده ونعمة الأخوة منــة مــن الله على عباده إذ يقول فى سورة (آل عمران **واذكــروا نعمــة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانــا**) ومن ثم فلابد أن يعيش المسلم عيشة واحدة لا تفرقها الأحقــاد : والعداوة بين العرب السابقين على الإسلام كانت تنشأ بسبب تافــه وتتطور إلى ما لا يحمد عقباه لماذا ؟ لأن الأساس القلبى هنــا – أى عند العرب الجهلاء ضعيف لا رابطة تربطهم ، ولا ألفة ولا محبة ومن ثم كانوا على شفا حفرة من النار فلم تكن لهم عقيــدة تربطهم جميعا ومن ثم فلم تكن تفلح رابطة القرابة بدون العقيدة ثم لماذا يتباغض الناس ويتحاقدون على دنيا فانية لا دوام لها (وتلك الأيام نتداولها بين الناس) فمن تحقد عليه اليوم قد يحقد عليك غدا وتكون النتيجة الحتمية لذلك هو التفرقة وتحطم روح الإخاء التى

([1]) الحجرات /١٢ .

حاول الإسلام منذ أول لحظة إرساءها ، والرسول يقول (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته) فهذا بعض حقوق المسلم على أخيه المسلم وهنا أحاديث عدة فى هذا الباب لا يتسع المجال لذكرها ، الجزء الأخير يتحدث عن مشكلة اجتماعية تنتاب بعض الناس لحبهم أنفسهم وتفضيلها على الآخرين مع أن من أعظم صفات المؤمنين أنهم (**يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**)[1] والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك**) فهذه مشكلة خطيرة يقتتل من أجلها الناس ، وكانت من أقبح مساوئ الجاهلية إذ كان القوى يأكل الضعيف ، ويعتدى على حقوق أخيه قابيل ، ويبدو أن بنى آدم توارثوا هذه الخصلة السيئة ، وكانت سببا فى القضاء على كثير من طبائعهم الجيدة ، بل والقضاء على مجتمعات بأكملها والنتيجة المترتبة تكون صراعا اجتماعيا ، يقع بين الأقوياء والضعفاء ، الفقراء والأغنياء ، ويرجع المجتمع إلى عصر البدائية ، وشريعة الغاب ، وينهانا الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر يقول: (**نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم فى بيع**

([1]) الحشر / ٩ .

بعض ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب) .

ونرى هنا اقتران البيع بالخطبة ، وقد يكون ذلك بسبب اشتراكاهما فى المال ، فالبيع وسيلته المال ، والخطبة كذلك ، كما أنهما يشتركان فى صفة التفاوض ، فالبيع يكون بين طرفين ، والخطبة بين الطرفين ، وكلاهما يقوم على التراضى فلو لم يرض البائع بالثمن ما باع السلعة وفى الخطبة لو لم يرض الطرفان ما قام للزواج أساس شرعى ، ويروى لنا البخارى مثلا ضربة لنا الصحابيان الجليلان أبو بكر وعمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تزويج حفصة ، إذ يروى البخارى أن (عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة قال لقيت أبا بكر فقلت إن شئت أنكحت حفصة بنت عمر ، فلبثت ليالى ، ثم خطبها رسول الله صلى عليه وسلم فلقينى أبو بكر فقال إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أننى قد علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها فلم أكن لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها لقبلتها) [1] ولعل هذا هو أعظم مثل يمكن أن يقتدى به فى هذه الناحية ، إن الرسول وصحابته قدوة ، وهم

---

(1) البخارى ج٣ / ١٩٠ .

أيضا منار يهدينا فى دنيانا إلى فعل الطيبات واجتناب الخبائـــث ، فأبو بكر لا يقبل خطبة حفصة لمجرد أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يذكرها فقط ، مع أنه لم يخطبها ، هذا مثال ليتعلم منها شباب اليوم كيف يحافظون على علاقتهم ببعض ولا يتواثبون على ما يريده كل منهم ، ويحاول كل منهم الإستئثار بما يريده الآخـــر وهى صفة تتنافى مع مبادئ المؤمنين الذين يؤثرون على أنفسهم والذين يقفون صفا واحدا فى الصلاة بين يدى الله سبحانه وتعالى، والذى يؤدون الزكاة كحق للآخرين فى مالهم ويصومون ليتحكموا فى إرادتهم ، ويحجون ليشهدوا منافع لهم فى تعارفهم تحت راية الله سبحانه وتعالى .

٥- حق الضيـــف

عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه) [١] .

من بين العادات التى حرص الإسلام على تأكيدها وكانت موجودة قبل ذلك فى الجاهلية هى إكرام الضيف ، بـل امتـدحها فيهم لدرجة أن أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها عندما بشرت محمدا صلى الله عليه وسلم بالبعثة قالت لـه (والله إنـك لتقـرى الضيف) ويرجع السبب فى ذلك أن الإسلام يعتبر المسلمين إخوة، فإذا جاءك أخوك فى الإسلام من مكان بعيد فلابد أن يشعر بأنـه قادم بين أهله ، وليس غريبا عنهم أيا كـان موطنـه ، فـأرض الإسلام كلها أرضه والمسلمون كلهم إخوانه ، وهكذا تكون الإخوة الحقيقية فى الإسلام .

ولقد ذكرت كلمة " ضيف " فى القرآن الكريم ست مرات، فى ست سور مختلفة وكلها توحى بالحث على إكرام الضـيف ،

---

(١) البخارى ج٤ / ٣٢ .

واحترام مقامه ، وكانت خمس منها فى معــرض الحــديث عــن ضيوف إبراهيم ولوط الرسل الذين أرسلهم الله إلى لوط وقومــه لينهاهم عن فعلتهم السيئة التى كانوا يرتكبونها بإتيــان الرجــال شهوة من دون النساء وواحدة جاءت فى معرض الحــديث بــين موسى والعبد صالح حين اصطحبه ليتعلم منه .

والرسول صلى الله عليه وسلم يجمع بين الصفتين الأولى أنه عربى أصلا والعرب كانوا يتبارون فى إكرام الضيف وخدمته وكانت هذه الصفة هى التى تميز بعضهم على الآخرين ، والصفة الثانية أنه رسول الله ، وقد علمه الله وأخبره أن جزءا من رسالته إفشاء المحبة والتآخى بين الناس وهو يعرف أن جانبا كبيرا مــن هذا يعود إلى إكرام الضيوف والاحتفاء بهم كرمز لهــذا التــآخى وعلامة على المحبة بين المسلمين .

ولذلك فإننا لا ندهش حين يجعل الرسول صلى الله عليــه وسلم إكرام الضيف علامة الإيمان بالله واليوم الآخر فيقول (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) ويؤكد عليها فى ثلاثة أحاديث متتالية بهذا النص (من كان يؤمن بالله واليــوم الآخــر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيــرا أو ليصمت) .

وهذا التركيز على إكرام الضيف إن دل على شئ فإنمـــا يدل على تأكيد الإسلام على المعنى الاجتماعى له فالمســألة أولا وأخيرا تعنى بناء مجتمع قوى متماسك وفى سبيل إكرام الضــيف أباح الإسلام للمسلم أن يفطر إذا كــان صـــائما صـــوم تطــوع والضيف مفطر وفرض عليه أن يأكل حتى ولو لم تكــن نفســه تشتهى الطعام (فيروى البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكــر رضى الله عنهما أن أبا بكر تضيف رهطا فقال لعبــد الــرحمن دونك أضيافك فإنى منطلق إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأفرغ من قراهم قبل أن أجئ فانطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده فقــال اطعموا فقالوا أين رب منزلنا قال أقبلوا عنا قراكم فإنه عن جــاء ولم تطعموا النلفين منه ، فأبوا فعرفت أنه يجد على فلمــا جــاء تنحيت عنه فقال : ما صنعتم فأخبروه فقال ياعبد الرحمن فسكت فقال يا عنتر أقسوت علي إن تسمع صوتي ما جئت فخرجت فقلت سل أضيافك فقالوا صدق، أتانا به قال فلما انتظرتمـــونى والله ولا أطعمه الليلة فقال الآخرون ، والله لا نطعمه حتى يطعمه قال لــم أر فى الشر كالليلة ويلكم ما أنتم لم لا تقبلون عنا قــراكم هــات

طعامك فجأة فوضع يده فقال : باسم الله ، الأولى للشيطان فأكل وأكلوا) [1].

ومن هذا الحديث نتبين أن للضيف الحق فى أن لا يأكل مادام صاحب البيت لا يأكل وعندما قال الرسول لسلمان وقد فعل مع أبى الدرداء ما فعله أضياف أبى بكر قال له الرسول صلى الله عليه وسلم صدق فإنما كان يقره على ذلك والسبب فى ذلك أنه ربما أحس الضيف أن صاحب البيت مكره على إكرامه فيكون بذلك محرجا .

ولكن إذا كان كل هذا للضيف وقد أجاز له الرسول صلى الله عليه وسلم – كما يروى الحديث الذى نحن بصدده – ثلاثة أيام فماذا عليه ؟ عليه ألا يكون ثقيلا يأخذ حقه من الكرم ثلاثة أيام وربما يكون تحديد المدة بثلاثة أيام هو أن هذه الأيام التى يستطيع الرحيل تحمل ضيفه دون مضايقة أو أن تكون قدرته المالية لا تتحمل أكثر من ذلك فإذا زاد المضيف وطلب من الضيف المكوث عنده أكثر من ذلك فهذا صدقة وهى ليس بلازمة، فالصدقة لا تجوز إلا على القادر أى الرسول صلى الله عليه الصلاة والسلام لم يقطع بالأيام الثلاثة فقط بل ترك الباب مفتوحا للقادر ، ولكن

---

(1) البخارى ج٤ / ٣٣ .

إذا كان قد أباح الرسول للضيف كل هذا فإنه أمره بأن لا مثـوى عند المضيف فلو افترضنا وجود رجل قادر على إكرام ضيفه فإنه يجب على الضيف أن لا يثوى عند مضيفه، والرسول يقول (حتى يحرجه) فربما منعه وجود الضيف من أداء واجبه تجاه أهله ولهم الحقوق عليه ، وهذا يعنى ان ديننا يحب الاعتدال ويـدعو إليـه فللمسلم على أخيه المسلم حقوق وواجبات ، لهم أن يتعاونوا ولهم أن يتحابوا وعليهم ألا يتباغضوا ولا يتفرقوا وأن يراعـى كـل منهما الأخر .

هذه هى أسس الإسلام القويمة التى يمكن أن يقوم عليهـا المجتمع الإسلامى الذى يلتزم بالسلوك الصحيح والـذى ينتهـى بالطريق أن يكون مجتمعا قويا قادرا على فرض احترامه علـى الأخرين لا تعوقه عوائق مالية أو عوائق نفسية أفراده مخلصون أنقياء أتقياء يحب كل منهم الآخر وذلك فى إطار من محبـة الله سبحانه وتعالى .

وهى فى الوقت نفسه تؤكد أن منهج الإسلام متكامل قولا وعملا لا ينفصل فيه جزء عن آخر ولعلى أكون قد وفقـت فـى اختيار أمثلة ونماذج تؤكد حقيقة هذا المـنهج التكـاملى للعقيـدة

والعبادة فى الإسلام إنه منهج (يهدى به الله من اتبــع رضــوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) .

إن كل جزئية فيه تؤدى إلى الآخرين ، الإيمان يؤدى إلى العبادة ، وكلاهما يؤدى إلى معاملات كريمة تصح أن تكون قاعدة تنطلق منها القوانين التى تسير أمور الحياة للناس ، بل إنهم لــو ساروا على هذا الهدى الطيب ما احتاجوا إلـــى قـــوانين بشـــرية أصلا، لأن مبادئ الدين وأصوله فيها الكفاية ، بـــل أعلـــى مـــن الكفاية .

المصـــادر

١- القرآن الكريم .

٢- صحيح البخارى ط بولاق د . ت .

٣- صحيح مسلم ط الحلبى د . ت .

المراجـــع

١- ابن هشام : السيرة النبوية ط الحلبى د.ت .

٢- جلال الدين السيوطى : تفسير الجلالين ط الحلبى د.ت .

٣- السيد سابق : فقه السنه ط المطبعة النموذجية بالقـاهرة د.ت الأجزاء من ١ -٤ .

٤- الفخر الرازى : أسرار التنزيل وأنوار التأويل تحقيق محمود أحمد محمد وآخرين ط : العراق ١٩٨٥ .

٥- محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام (جزءان) ط١ دار ثابت بالقاهرة ١٩٨٤ .

٦- محمد عبده : رسالة التوحيد ، كتـاب الهـلال عـدد يوليـة ١٩٨٠.

٧- محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ط أخبار اليوم د.ت.
٨- وليم جيمس : العقل والدين ترجمة محمود حسب الله (دكتور) ط الحلبى ١٩٤٩ .
٩- يوسف القرضاوى (دكتور) : العبادة فى الإسلام ط القاهرة د.ت .

الفهـــــرس

تم بحمـــد الله

مـع تحـيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية
dwdpress@yahoo.com
http:/ www.dwdpress.com